الفصل الثانى
شعر الخوارج

١

يمكننا أن نؤرخ لشعر الخوارج منذ النهروان وهى المعركة التى دارت بين على بن أبى طالب والمحكِّمة الأولى منهم الذين انحازوا عنه إلى حروراء رافضين أن يحكم الرجال رافعين شعارهم بألا حكم إلا لله ، مبايعين عبد الله بن وهب الراسبى إماماً لهم .

وقد اضطر علىّ إلى قتالهم بعد أن لم تجد مفاوضاته معهم وأصروا على موقفهم أو يتوب علىّ مما وقع فيه من الحيرة والخديعة ، وقوى عزمه على قتالهم أنه كان أزمع أن ينهض لقتال أهل الشام بعد أن انتهت مهزلة التحكيم إلى ما انتهت إليه وخشى أنصاره أن يتركوا ظهورهم وديارهم معرضة لانقضاض المحكمة الذين تجرأوا فقتلوا عامله على المدائن وبقروا بطن امرأته كما قتلوا رسولا أرسله إليهم علىّ ليتبين الأمر .

ورفض المحكمة أن يدفعوا إلى علىّ بالقتلة وضربوا عرض الحائط بدعوته لهم إلى العودة لحرب أهل الشام وأجابوه بأنهم لا يأمنون أن يبايعوه اليوم فيحكم غداً وتهيئوا لقتاله وتنادوا بالرواح إلى الجنة ، ونهى علىّ أصحابه أن يبدأوهم بقتال حتى خرج منهم أخنس بن العيزار الطائى ، وهو ينشد :

ثمانون من حيّ جديلة قتلوا ... على النهر كانوا يخضبون العواليا
ينادون ألا حكم إلا لربنا ... حنانيك فاغفر حوبنا والمساويا
هم فارقوا من جار فى الله حكمه ... فكل على الرحمن أصبح ثاويا[1]

(١) مناقب آل طالب جـ ٢ ص ٣٧١ .

وقد نفذ إليه سيف علىّ فأرداه فخرج إمامهم عبد الله بن وهب الراسبى وهو يرتجز معلناً عن نفسه بقوله :

أنا ابن وهب الراسبى الشارى أضرب فى القوم لأخذ الثار
حتى تزول دولة الأشرار ويرجع الحق إلى الأخيار[1]

وبرز بعد ذلك مالك بن الوضاح مرتجزاً :

إنى لبايع ما يفنى بباقية ولا يريد لدى الهيجاء تربيصا[2]

وقد قتل المحكمة جميعاً ولم يفلت منهم غير عدة أشخاص يعدون على الأصابع وكان بين القتلى زعماء الخوارج من أمثال إمامهم عبد الله بن وهب الراسبى ، وزيد بن حصن الطائى ومالك بن الوضاح وفيهم يقول أبو بلال مرداس بن أدية :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجى سلامة وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيارب سلم نبيتى وبصيرتى وهب لى التقى حتى ألاقى أولائكا[3]

وقد أثمرت موقعة النهروان سخطاً مؤرثاً عند الخوارج حتى أصبح لها ما لكربلاء من الأثر عند الشيعة ، فكثر بكاء القتلى منهم يوم النهر وظلوا يتربصون بعلى حتى قتلوه بيد عبد الرحمن بن ملجم المرادى وزهوا بهذا القتل زهواً عجيباً كما يبدو فى قول عمران بن حطان الذى يصوب فيه صنيع ابن ملجم على هذا النحو :

لله در المرادى الذى سفكت كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته معطى مناه من الآثام عريانا
يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا[4]

كما سجل الشعر أن قتل علىّ كان ثأراً بقتلى النهروان ، أو على وجه الدقة ثأراً

---

(١) الموضع نفسه .
(٢) مناقب آل طالب جـ ٢ ص ٣٧١ .
(٣) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩٩ .
(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٥ ، خزانة الأدب جـ ٢ ص ٤٣٦ .

بقتلى النهروان من آل قطام ابنة علقمة من تيم الرباب ، وهى فتاة أراد ابن ملجم أن يتزوجها وكان أبوها وأخوها قتلا يوم النهروان وكانت ترى رأى الخوارج ، فلم تقنع من ابن ملجم إلا بقتل علىّ صداقاً لها فضلا عن ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة . وفى ذلك يقول ابن أبى مياس المرادى :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علىّ بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من علىّ وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم (١)

وقد قام الخوارج بعدة حركات محدودة استهدفت الثأر لقتلى النهروان ، كان أهمها معركة النخيلة التى قاتلوا فيها أهل الشام ، ثم هزمهم شيعة الكوفة عندما استنهضهم معاوية ليكفوه مئونتهم .

ولكن هزيمتهم لم تفت فى عضدهم فسرعان ما نصبوا المستورد بن علفة إماماً وكان من الذين ارتثوا يوم النهروان فلما بلغه قتل علىّ عاد إلى الكوفة يفكر فى الانتقام ، وصادف ذلك أن كان المغيرة بن شعبة يسير سيرة لينة فى الناس بالكوفة ، وقد استغل الخوارج إغضاءه فأخذوا يجتمعون لتبادل الرأى فى الثأر لإخوانهم فى دار حيان بن ظبيان الذى كان يحرضهم ويحثهم على الثأر من الظالمين بمثل قوله :

خليلىّ مابى من عزاء ولا صبر ولا أربة بعد المصابين بالنهر
سوى نهضات فى كتائب جمة إلى الله ماتدعوو فى الله ما تفرى (٢)

وأسفرت هذه الاجتماعات عن اتعادهم الخروج غرة شعبان من سنة ٤٣ هـ بيد أن المغيرة شعر بالخطر فقام باعتقالهم حيث قضوا فى سجنه قرابة عام .

ومن داخل السجن تسربت أبيات لمعاذ بن جوين وجه بها إلى إخوانه الخوارج وإلى إمامه المستورد بن علفة الذى نجا من الاعتقال ، والأبيات تحث

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٨٧ .
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٠ .

الخوارج على أن يتحولوا عن ديار الجاهلين الذين يضطهدونهم ، وأن يقاتلوهم متمنياً أن يكون حرًّا طليقاً حتى يشاركهم فى قتال الكفار المحلين من أهل القبلة وتفريق شملهم على هذا النحو :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئٍ ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الجاهلين جهالة ... وكل امرئٍ فيكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنما ... إقامتكم للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر سابح ... شديد القصيرى دارعاً ليس أعزلا
ويا ليتنى فيكم أعادى عدوكم ... فيسقينى كأس المنية أولا
يعز علىّ أن تخافوا وتطردوا ... ولمّا أجرد فى المحلين منصلا
ولمّا يفرق جمعهم كل ماجد ... إذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحاً بنصل السيف فى حمس الوغى ... يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
وعز على أن تضاموا وتنقصوا ... وأصبح ذابث أسيراً مكبلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم ... أثرت إذن بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة ... شهدت وقرن قد تركت مدلا(١)

واستجاب الخوارج لهذا النداء الحار فخرج بهم المستورد حتى نزل الحيرة ثم تركها وعاد مستتراً إلى الكوفة فى دار صهره سليم بن محدوج من عبد القيس ، وشعر المغيرة بأنهم يدبرون أمراً فخطب محذراً الناس وخشى المستورد على صهره الذى لم يكن من الخوارج ، وقرر الارتحال واتعد وأصحابه بهرسير من ضواحى المدائن فتتاموا بها ثلاثمائة رجل ، ومن هناك مضوا فى أرض جوخى حتى بلغوا المذار بجوار البصرة وتتبعهم جيش من شيعة الكوفة أرسله المغيرة فى أعقابهم وكأنه يريد أن يفنى هذان الحزبان بعضهم بعضاً ولحق بهم هذا الجيش بعد أن ضالوه طويلا فى المذار حيث دارت وقعة عظيمة هزم فيها الخوارج ، ولكنهم لم ييأسوا فحاول فلهم أن يخدع جيش الشيعة بالانقضاض على مؤخرته ولكن الطليعة بقيادة أبى الرواغ قضت عليهم عند قرية ديلمايا ، وقتل المستورد كما

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٠٧

قتل قائد جيش الشيعة معقل بن قيس الرياحى إثر مبارزة مستميتة[١] .

وقد ظل الخوارج بعد مغامرة المستورد عدة سنوات لا يفكرون فى عمل جديد فقد تولى زياد بن أبيه البصرة سنة ٤٥ هـ وسار فى الناس سيرة بطش وجبروت ، وأخذ الخوارج بكل شدة ثم جمعت إليه الكوفة بعد وفاة المغيرة بن شعبة سنة ٥٣هـ فأخذ أهلها بنفس القسوة التى أخذ بها أهل البصرة فضعفت شوكة الخوارج ولم تقم لهم قائمة إبان ولايته حتى خلفه على الكوفة ابن أم الحكم الثقفى ، فنهض الخوارج من جديد فبايعوا حيان بن ظبيان فى محاولة للتكفير عن إخلادهم إلى الهدوء فى ولاية زياد ولم يكن هؤلاء يزيدون عن مائة رجل ، ولذلك رفض إمامهم الجديد أن يخرج بهم إلى حلوان وكان هدفه أن يقاتل بهم فيما يجاور الكوفة حتى يلحقوا بربهم لا يبغى من وراء ذلك شيئاً سوى الاستشهاد ، فعول على السير بهم إلى بانقيا واضطروا إلى موافقته ، وهناك قتلهم جيش أرسله الوالى وكان ذلك فى نهاية سنة ٥٩ هـ وكانت هذه هى نهاية الخوارج فى الكوفة .

وليس شك فى أن سلطان الشيعة ونشاطهم قد بز نشاط الخوارج فى الكوفة التى لم تكن لتتسع لأى نشاط عدا نشاط الشيعة ، وربما كان ذلك سبباً فيما نجده من قلة شعر الخوارج فى الكوفة إذ لحقه ما لحق أصحابه من اضطهاد فقد دون فى عصر كان للشيعة فيه سلطان قوى وكان أكثر من دونوه من الشيعة كأبى الفرج والمسعودى فأهملت آثارهم وترك أكثرها نهباً للضياع وبدت شخصياتهم الأدبية مبتورة لا يتناسب ما يروى لهم من الشعر مع شهرتهم التى اكتسبوها . ويكفى لكى نعلم مدى ما انصب عليهم من اضطهاد أن ابن قتيبة لم يشر إلى أحد منهم فى كتابه الشعر والشعراء إلا ما كان من ذكر الطرماح بصدد سرقاته عن غيره بينما لا يشير ابن سلام فى طبقاته إليهم من قريب أو بعيد .

فإذا ما تركنا شعر الخوارج فى الكوفة إلى شعر البصريين منهم ، لم نجد شيئاً ذا قيمة حتى ولاية عبيد الله بن زياد سنة ٥٥ هـ .

فقد سلك الخوارج فى البصرة مسلكاً جعل المؤرخين لا يفرقون بينهم وبين

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١١٨

عامة اللصوص والسفاحين ، وكان الشرفاء من الخوارج أمثال أبى بلال يتبرءون منهم ويسخطون عليهم ، ويكاد الجاحظ يعنيهم وقد قرنهم إلى اللصوص فى قوله « لأنك لا تعرف فقيهاً من أهل الجماعة لا يستحل قتال الخوارج كما أنا لا نعرف أحدهم لا يستحل قتال اللصوص »[١] .

وقد ابتدأ خوارج البصرة نشاطهم منذ النهروان عندما خفوا برئاسة مسعر ابن فدكى التميمى لمؤازرة إخوانهم أهل الكوفة ثم أعقب ذلك خروج سهم بن غالب التميمى والخطيم الباهلى سنة ٤١ هـ فى سبعين رجلا وقد قتلوا رجلا من بنى بجير ، وعندما تولى زياد البصرة سنة ٤٥ هـ خافه سهم ففر إلى الأهواز حيث قتل أحد المسلمين هناك استعراضاً وتجاسر على دخول البصرة ولكن أنصاره خذلوه فاستتر وطلب أمان زياد ، ولكنه لم يؤمنه وصلبه . وكذلك لقى نفس مصيره زميله الخطيم بعد أن نفى إلى البحرين ثم وضع تحت الرقابة فى البصرة ولكنه أثار شبهات زياد فقتله .

ثم خرج قريب الأزدى وزحاف الطائى فى سبعين رجلا أيضاً فقتلا شيخاً من بنى ضبيعة ، واشتد زياد فى شأنهم وعاملهم معاملة المجرمين الذين يعكرون صفو الأمن وكانت حالة الفوضى التى سادت البصرة ملائمة لنشاطهم ولكنه كان نشاطاً ينقصه التنظيم والهدف وتكاد الفترة منذ النهروان وعام ٦٤ هـ تكون فترة دراسة ودعوة وتذكر لشهداء العقيدة ، ومحاولات جزئية للثأر سبقت تبلور المذهب على الصورة التى نراها فيما بعد هذا التاريخ .

ولهذا فإننا نجد الشعر فى تلك الفترة لا يمثل إلا الرغبة فى الثأر من المحلين الكافرين والهجرة عن ديارهم .

وقد اهتم عبيد الله بن زياد بتفتيت وحدة الخوارج فاتخذ منهم جماعة لنفسه واستخدمهم ضد زملائهم فكانوا حرباً عليهم وأنتج ذلك شعوراً عند هذا الفريق لم يكفر عنه إلا الثورة بابن زياد ، وقد انتهى أمر هؤلاء بأن ذبحهم حراس ابن زياد فى عيد الفطر سنة ٥٨ هـ وأخذ ابن زياد من بقى منهم بالشدة والقسوة .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٨٧ .

وكان أبو بلال مرداس بن أدية التميمى أبرز شخصية بين خوارج البصرة ، وتكاد شخصيته النبيلة تكون شخصية أسطورية فذة فى تاريخ العقائد ففضلا عن إيمانه العميق بمبادئ الخوارج فقد كان له تفرد واضح فى آرائه الخاصة كرفضه لاشتراك النساء فى الحروب وإنكاره للاستعراض واستنكاره لأعمال العنف الهوجاء التى اقترفها الخوارج بالبصرة ويروى فى نبله قصص غريب منه هذه القصة التى تصور عودته إلى محبسه بعد أن تأكد من انتواء الأمير قتله وفاء لسجانه الذى كان يسمح له بمغادرة السجن كل ليلة والعودة إليه فى الصباح . وقد استحق بهذا الوفاء عفو الأمير . ولكن أخاه عروة كان من رءوس الخوارج ولم يجبن عن مواجهة ابن زياد وعن اتهامه بالظلم والبطش فأخذه فصلبه بعد أن مثل به وأرسل إلى ابنته فقتلها كما قتل زميلة لها خارجية تدعى البجاء وصلبها عارية فى سوق البصرة .

وكانت هذه الأعمال ذات أسر سيئ على نفس أبى بلال الذى قرر الخروج فى أربعين رجلا اندفع بهم إلى الأهواز سنة ٦٠ ﻫ . وكان أبو بلال نبيلا فى خروجه فلم يعتد على أحد كما لم يتعرض بسوء لأموال الخراج التى صادفته فى طريقه فلم يأخذ منها غير عطائه وعطاء رفاقه ، وأرسل عبيد الله فى أعقابه بألفى رجل بقيادة ابن حصن التميمى ، وفى آسك دارت معركة مجيدة بين جيش ابن زياد ورجال أبى بلال الأربعين الذين أرغموا ابن حصن على الفرار بعد أن استحر فى جيشه القتل .

وقد أشاد شاعر الخوارج عيسى بن فاتك الحبطى بهذا الانتصار المؤزر الذى أحرزته فئة قليلة على جيش جرار مرجعاً السبب فى ذلك إلى قوة إيمانهم وتقواهم فى قوله :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتى أتاهم ... سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم ... بأن القوم ولوا هاربينا

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا[١]

وهالت الهزيمة ابن زياد فقذفهم بثلاثة آلاف رجل بقيادة عباد بن الأخضر التيمى وتلقاهم أبو بلال فى صحبه ، ويبدو أنهم أيقنوا بالفناء فطلبوا إلى عباد أن يمنحهم الأمان حتى يصلوا فأمنهم وبينما هم ساجدون انقض عليهم عباد وجنده فقطعوهم إرباً إرباً وهم لا يريمون عن سجودهم .

وقد أصبح أبو بلال بعد هذا الحادث قديس الخوارج بمعنى الكلمة ، تمثلوه فى إيمانه القوى وإن لم يتمثلوه فى رقة نفسه ودماثة طبعه فأثار مقتله على هذا النحو الفظيع من الغدر حفيظة الخوارج ودفعهم إلى الاستماتة فى الجهاد دفعاً ، كما يبدو فى تلك الأبيات التى قالها عمران بن حطان إثر استشهاده وهى تقول :

لقد زاد الحياة إلىّ بغضاً وحبًّا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى وأرجو الموت تحت ذرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى لها والله رب البيت قالى[٢]

وقد اضطر الخوارج بإزاء شدة ابن زياد إلى مغادرة البصرة عقب مقتل أبى بلال ، ووجدوا فى دعوة نافع بن الأزرق لهم إلى مؤازرة ابن الزبير فى حماية الأماكن المقدسة خلاصاً من عنف ابن زياد ، وفى مكة أتيح لهم أن يشتركوا فى الذود عن الكعبة وأن يساندوا عبد الله بن الزبير الذى حصرته جيوش الشام ، ورفع الحصار بوفاة يزيد بن معاوية وظهر الخلاف بين الخوارج وابن الزبير ، وتأكدوا أنه ليس رجلهم المأمول وأعقب ذلك أن ثار الخلاف فيما بينهم هم أنفسهم فعاد نافع بن الأزرق ومعه جماعة من رءوسهم إلى البصرة بينما اتجه أبو طالوت وابن الأسود وأبو فديك إلى اليمامة .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٤ .
(٢) الخزانة جـ ٢ / ٤٤٠ .

وصادف دعوة نافع وجماعته إلى البصرة هروب عبيد الله بن زياد منها وقيام الصراع القبلى الذى أعقب فراره ، فانتهز الخوارج الفرصة واقتحموا سجون البصرة واستنقذوا إخوانهم منها ، وأصبح نافع وتحت إمرته ثلاثمائة من الخوارج يدينون له بالطاعة فخرج بهم إلى الأهواز فى نهاية شوال سنة ٦٤ هـ ، وهناك تمكن من السيطرة على المنطقة وانتشر عماله فى السواد يجبونه حتى عظم أمره واشتدت شوكته ، وتزعم إحدى الروايات أنه تنام له هناك زهاء ثلاثين ألف فارس ممن يرى رأيه ، منهم جماعة كبيرة من رءوس الخوارج مثل عطية بن الأسود الحنفى وأبناء الماحوز وقطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال اليشكرى وصالح بن مخراق العبدى وعبدربه الكبير وعبد ربه الصغير وصخر بن حبناء التميمى[1] .

ولما اصطلح أهل البصرة على ولاية عبد الله بن الحارث القرشى المعروف بببّه اجتمعوا على الخوارج المقيمين بالبصرة ، واضطروهم إلى الفرار ليلحقوا بنافع فى الأهواز إلا قليلا منهم لم يكن يرى رأيه فى الهجرة كعبد الله بن الصفار وعبد الله بن إباض وقد كان نافع متشدداً فى مذهبه تشدداً غالياً فقد أوجب الهجرة عن ديار المحلين وجعلها ديار كفر وحرب ، كما كفر القعد وأباح الاستعراض وقتل الأطفال .

وقد نتج عن هذا الغلو افتراق الخوارج إلى أربع فرق كبيرة ، كانت الأزارقة أكبرها وأسرعها إلى الفناء لأنها بنت منهاجها على العمل أكثر من النظر فتميزت عن بقية الفرق بكثرة حروبها وعنفها .

ولم يكن للنجدات تشدد الأزارقة وغلوهم ، وكذلك لم يكن لهم ما كان للأزارقة من شأن فى كثرة الحروب وعنفها ، فقد اقتصر نشاطهم على تلك المنطقة المحددة فى اليمامة مما يلى البصرة ، ولكنهم نجحوا فى بسط سلطانهم على شمال البحرين وجزء من اليمن وعمان لفترة قصيرة ، وكاد نجدة يبسط سلطانه على الجزيرة العربية كلها مستغلا ضعف ابن الزبير لولا ما حاق به من تفرق أصحابه واختلافهم عليه وتكفيرهم له .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٩ .

وما لبث أبو فديك أن تولى أمر هذه الفرقة بعد أن قتل نجدة حتى شغب عليه عطية الحنفى وظل أمرهم يتدهور حتى هزموا أمام جيش من أهل العراق وسقطت دولة النجدات بعد سبع سنين من قيامها فى سنة ٧٢ هـ .

ولا نجد لهذه الفرقة أثراً يذكر فى الشعر ، ويبدو أنه لم يكن بينهم شاعر عقائدى يعبر عن آرائهم ولكننا نجد آثارهم ماثلة فى شعر خصومهم الذين سجلوا عليهم إشاعتهم للذعر فى المنطقة عند ابتداء قيام دولتهم ، فأخبار نجدة تذهب إلى أنه كان يغير على العرب فى جميع الجهات وأنه لم يزل كذلك حتى ملأ يديه وفعل ذلك ببنى أسد وطىء ، ولما أغار على بنى معن تذامروا ونهضوا للانتقام من النجدات واتبعوهم مستقتلين ، وحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى إن الرجل من بنى معن كان ينتهى إلى الرجل من النجدية فيأخذ منه سيفه فيضرب به عنقه ، وقد وصف إياس بن مالك الطائى هذه المعركة فى قوله :

سمونا إلى جيش الحرورى بعدما ... تناذره أعرابهم والمهاجر
بجمع تظل الأُلم ساجدة له ... وأعلام سلمى والهضاب النوادر
فلم ادركناهم وقد قلصت بهم ... إلى الحى خوص كالحنى ضوامر
أنخنا إليهم مثلهن وزادنا ... جياد السيوف والرماح الخواصر
كلا ثقلينا طامع بغنيمة ... وقد قدر الرحمن ما هو قادر
فلم أر يوماً كان أكثر سالباً ... ومستلباً سرباله لا يناكر
وأكثر منا يافعاً يبتغى العلا ... يضارب قرناً دارعاً وهو حاسر
فما كلت الأيدى ولا انأطر القنا ... ولا عثرت منا الجدود العواثر[1]

وفى الوقت الذى سقطت فيه دولة النجدات ، كان الأزارقة يخوضون حرباً نظامية شديدة مع جيوش الدولة .

وكان نافع قد نجح فى إخضاع الأهواز وكورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان حتى صار له جيش عظيم فقرر أن يعود إلى البصرة ، وبلغت أخبار زحفه أهل

(١) شرح حماسة التبريزى جـ ١ / ص ٢٣٤ .

البصرة ففزعوا إلى الأحنف بن قيس يشكون إليه أمرهم فحرضهم وجعلهم تحت قيادة مسلم بن عبيس بن كريز ، وخرج مسلم يدافع نافعاً عن أرض البصرة ولما جاز بهم الجسر خيرهم بين الرجوع والتقدم إلى الأزارقة ، ووصف لهم بأسهم وقسوتهم فرجع منهم قوم ومضى الباقون معه ، فلما صاروا بمكان يقال له دولاب على نهر الدجيل برز لهم الأزارقة فقاتلوهم قتالا شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتلى وتضارب الجندان بالسيوف والعمد فقتل ابن عبيس وقتل نافع وخلفه على قيادة الخوارج عبيد الله بن الماحوز بينما خلف مسلماً الربيع بن عمرو الغدانى الشهير بالأجذم فقاتل الخوارج نيفاً وعشرين يوماً قتالا صارماً حتى قتل فتدافع أهل البصرة الراية كلهم يخشى العطب ثم اشتد القتال شدة لم يعهدها أهل البصرة فطاعنوا الخوارج بالرماح حتى تقصفت ثم ضاربوهم بالسيوف حتى لم يبق لأحد منهم قوة وحتى كان الرجل منهم يضرب الرجل فلا يغنى شيئاً من الإعياء فتراموا بالحجارة وظلوا كذلك حتى اجتمع أهل البصرة على الحجاج بن باب الحميرى ولكنه امتنع خوفاً عن أخذ الراية فدفعها إليه كريب بن عبد الرحمن منددأ بجبنه فأخذها ، وناهض الخوارج حتى انتقضت الصفوف والخوارج أقوى عدة بالدروع والجواشن ، ويذكر أن الحجاج بن باب كان يغمض عينيه ويحمل عليهم حتى يغيب بينهم ، وهو يطعنهم حتى يظن أنه قتل ثم يرفع رأسه وسيفه يقطر دماً ويفتح عينيه فيرى الناس كراديس كل قوم يقاتلون فى ناحية حتى التقى الحجاج بعمران بن الحارث الراسبى ، فاختلفا الضربات حتى قتلا معاً ، وجال الناس بينهما جولة ثم تحاجزوا ، وأصبح أهل البصرة وقد هرب عامتهم ، وقد أشادت أم عمران بن الحارث الراسبى الذى قتل الحجاج بن باب بابنها ونعت على أهل البصرة فرارهم وتجاوزت النعى عليهم إلى اتهامهم بالكفر فى قولها :

الله أيد عمراناً وطهره ... وكان عمران يدعو الله فى السحر
يدعوه سرا وإعلاناً ليرزقه ... شهادة بيدى ملحادة غدر

ولى صحابته عن حر ملحمة وشد عمران كالضرغامة الذكر[١]

ونهض حارثة بن بدر الغدانى لقيادة أهل البصرة، ومناهم بزيادة فريضتهم، وندب الناس وهم على حال سيئة ، وقد فشت فيهم الجراحات ولهم أنين لا ينقطع ولم تكن الخيل تطأ غير القتلى؛ وبينما هم كذلك إذ أقبلت من اليمامة كتيبة جامة فاجتمعت كبكبة واحدة وحملت على أهل البصرة ، فنكص حارثة بن بدر برايته ، وانهزم وهو يرتجز يائسا :

أكرنبوا ودولبوا وحيث شئتم فاذهبوا

وتتابع الناس فى إثره منهزمين ، والخوارج يتبعونهم ، فألقى أهل البصرة بأنفسهم فى دجيل فغرق منهم خلق كثير من الأزد الذين كان عليهم قبيصة ابن أبى صفرة أخو المهلب ، فقال شاعر الأزارقة يذكر من غرق منهم .

يرى من جاء ينظر فى دجيل شيوخ الأزد طافية لحاها[٢]

وقد رثا الخوارج نافعاً ، وندد شاعرهم بمن شمت بمقتله مقرراً أن لا شماتة فى الموت وهو حتم لا محالة من وقوعه فقال :

شمت ابن بدر والحوادث جمة والظالمون بنافع بن الأزرق
والموت حتم لا محالة واقع من لا يصبحه نهاراً يطرق
فلئن أمير المؤمنين أصابه ريب المنون فمن تصبه يعلق[٣]

وسجل الشعر هذه الموقعة الهامة فى تاريخ الأزارقة الحربى فى أبيات مختلفة الرواية والنسبة تقول :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم أر مثلها شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر غير حليم

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٤ .
(٢) الأغانى جـ ٦ ص ٤ .
(٣) الأغانى جـ ٦ ص ٤ .

ولوشهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت ع الماء بكر بن وائل ... وألافها من حمير وسليم
ومال الحجازيون نحو بلادهم ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً ... يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أعز نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم يك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم[1]

وكان حارثة بن بدر قد انحاز بمن بقى من أهل البصرة فعبر بهم النهر وتحصن عند نهر تيرى ليحول دون الخوارج والعبور ، وظل كذلك ثلاثة أيام إلى أن وافاه جيش أرسله عمر بن عبد الله بن معمر والى البصرة الجديد الذى خلف ببه فى أعقاب هزيمة دولاب ، وكان هذا الجيش بقيادة أخيه عثمان ولكنه لا يلبث أن يلقى الهزيمة أمام الخوارج ويقتل فى وقعة دراس ليعود حارثة بن بدر إلى التقاط الراية من جديد ويغطى انسحابه فى عدد قليل من جنده ثم يرجع بهم مرة أخرى ليجثم فى موضعه السابق من نهر تيرى ، وقد استحق حارثة بفضل بسالته فى حماية جنده أن يشيد به أكثر من شاعر من قومه من مثل ذلك التميمى الذى قال فيه :

فلولا ابن بدر للعراقين لم يقم ... بما قام فيه للعراقين إنسان
إذا قيل من حامى الحقيقة أو مأت ... إليه معد بالأكف وقحطان[2]

وبطبيعة الحال تختلف صورته عند الأزارقة حتى ليقول فيه شاعرهم :

ألم تر أن حارثة بن بدر ... يصلى وهو أكفر من خمار
ألم تر أن للفتيان حظاً ... وحظك فى البغايا والعقار[3]

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٥ ، الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٨٢ .
(٢) شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٣٨٣ .
(٣) المرجع السابق .

وقد راح جند حارثة يتخلون عنه منسلين إلى البصرة ، وغرق حارثة عندما وثب جندى كامل الشكة فى سفينته فانقلبت به فى اليم وانفتح الطريق أمام الخوارج إلى البصرة وتحصنوا عند الموقع الذى كان حارثة يحرسه ، ولم يعد أمامهم لدخول البصرة غير عبور الفرع الآخر من دجيل . وازداد فزع البصريين فتقدموا إلى الأحنف من جديد يستنجدون به ويطلبون مساعدته فأشار عليهم بأن يطلبوا من عبد الله بن الزبير إرسال المهلب بن أبى صفرة من خراسان لمعالجة أمر الخوارج . وقد نهض المهلب بالمهمة الموكولة إليه ونجح فى طرد الخوارج من ناحية دجلة وجبى خراج كورها وطاردهم فى بطء والتقى معهم فى عدة معارك ترجح النصر فيها بينهما وبخاصة فى سولاف ، وقد رأى الخوارج أن يتراجعوا بعدها عبر النهر واتبعهم المهلب ثم التقى بهم فى سلى وسلسبرى ، وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً ، وقتل قائد الخوارج عبيد الله بن الماحوز فارتحلوا على أثر ذلك إلى الأهواز وبايعوا الزبير بن علىّ وظل المهلب يطاردهم حتى تولى مصعب أمر البصرة فبعث بالمهلب إلى الجزيرة لحماية حدود العراق من خطر أهل الشام .

وولى مصعب حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر فقاتلهم عند سابور وإصطخر وهزمهم واضطرهم إلى الانسحاب نحو أصفهان وكرمان ، ولكنهم تجمعوا وزحفوا خلال فارس متجهين من جديد نحو البصرة فنهض مصعب بنفسه للقائهم فانحرفوا نحو الكوفة فى طريقهم إلى المدائن وخرج القباع والى الكوفة للقائهم فعادوا ينحرفون ناحية البصرة واتجهوا من هناك يضربون فى جبال ميديا حتى انتهى بهم المسير إلى الرى .

وقد نجح عتاب بن ورقاء التميمى الوالى الأموى فى صدهم عن دخول أصفهان ، واضطرهم إلى الانسحاب بعد أن قتل أميرهم الزبير بن علىّ فبايعوا قطرى بن الفجاءة .

وكان قطرى شجاعاً وشاعراً وقد استحق بمكانته الحربية أن يصير قائداً

عاماً للأزارقة وبدأ عمله بأن عاد بهم إلى كرمان ليستعدوا ثم زحف بهم عبر دجلة حتى بلغوا سولاف وعادوا يزعجون أهل البصرة الذين تضرعوا تحت ضربات قطرى إلى مصعب أن يرميهم من جديد بالمهلب فهو أعلم بحربهم ، ولم يجد مصعب بدّاً من ذلك .

ودارت بين المهلب وبينهم مناوشات استمرت ثمانية أشهر كان الجيشان يتوقفان خلالها متوادعين فيتساءلون فيما بينهم عن أمور الدين والدنيا ، وكثيراً ما كان الفريقان يتحادثان فى الشعر ويتبادلان الآراء فى تفضيل شاعر على آخر كما كانوا يتناشدون الشعر حتى يملوا فيفترقوا .

وفى تلك الأثناء وقعت معركة مسكن بين مصعب وعبد الملك بن مروان وبلغ الأزارقة نبأ مقتل مصعب وهزيمة جيشه فأخذوا يتندرون بأهل البصرة وكأنما يفضحون ولاءهم الأعمى لمن ولى عليهم مهما كان لونه ، وتنبأوا لهم بأنهم سيصبحون أولياء لعدو الأمس وقد كان ذلك عندما بايع المهلب الناس لعبد الملك فى الغد.

وتولى حرب الخوارج ولاة أمويون نحّوا المهلب مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الذى ولى البصرة ونهض لحرب الخوارج ولكنه وضع نفسه موضعاً حرجاً عند نهر تيرى استنقذه منه المهلب فعاد الخوارج إلى كرمان كما عاد خالد إلى البصرة وترك قيادة الجيش لأخيه عبد العزيز والى فارس، وتمكن الخوارج من هزيمة عبد العزيز هزيمة منكرة فى دار بجرد وأسروا امرأته فأقاموها فيمن يزيد، وقد تعرض عبد العزيز للوم شديد وتقريع بالغ فى مثل تلك الأبيات التى نددت به على هذا النحو :

عبدالعزيز فضحت جيشك كلهم ... وتركتهم صرعى بكل سبيل
من بين ذى عطش يجود بنفسه ... وملحب بين الرجال قتيل
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلا ... إذ رحت منتكث القوى بأصيل
وتركت جيشك لا أمير عليهم ... فارجع بعار فى الحياة طويل
ونسيت عرسك إذا تقاد سبية ... تبكى العيون برنة وعويل[1]

(١) الطبرى جـ ٧ ص ١٩٤ ، ابن الأثير جـ ٥ ص ١٣٣ .

وفى نفس الوقت كان أبو فديك قد هزم أمية أخا خالد وعبد العزيز فى البحرين ، وعمل أبو فديك متعاوناً مع قطرى ، وتعقب الأزارقة أهل البصرة الذين فروا أمامهم إلى قنطرة اربك ، واستولوا على الأهواز كلها من جديد وتقدموا حتى بلغوا فرات ميسان فى مواجهة البصرة وعاد الموقف سيرته عام ٦٥هـ . واضطر عبد الملك إلى أن يعزل خالداً وضم البصرة إلى أخيه بشر بن مروان والى الكوفة وولى المهلب حرب الخوارج وجعله تابعاً له مباشرة ولم تنجح محاولات بشر لإفساد الرأى على المهلب بمن دسهم عليه لهذا الغرض كما فشلت الحملة التى بعث بها إلى الرى فباءت بالهزيمة أمام الخوارج وكان على رأسها الزبير ابن خزيمة الخثعمى فلقيها الخوارج بجلولاء حيث أبادوها عن آخرها وقد لام أعشى همدان قائدها لوما جارحاً فى قوله :

أمرت خثعم على غير خير ثم أوصاهم الأمير بسير
أينما كنتم تعيفون للنا س ما تزجرون من كل طير
ضلت الطير عنكم بجلولا ء وغرتكم أمانى الزبير[1]

وقد نجح المهلب فى كشف الأزارقة عن الفرات واتبعهم حتى بلغوا الجبال . ولكن أهل العراق ما لبثوا أن عادوا بمجرد أن بلغهم نبأ وفاة بشر .

وتولى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٧٥ هـ فرد الفارين من أهل العراق إلى رامهرمز ويبدو أنه استعمل العنف فى ذلك وتجاوزه إلى قتل الممتنعين عن العودة نظراً لشدة قتال الأزارقة . وتذكر الروايات أنه قتل رجلا يدعى عمر ابن ضابئ لتقاعسه عن اللحاق بالمهلب وقد قال عبد الله بن الزبير الأسدى فى ذلك :

أقول لعبد الله لما لقيته أرى الأمر أمسى واهياً متشعبا
تخير فإما أن تزور ابن ضابئ عميراً وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حولياً من الثلج أشهبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هى أقربا[2]

---

(١) الأغانى جـ ٥ ص ١٥٠ .
(٢) الأغانى ١١ ص ٤٠ .

وقد اهتم الحجاج بأمر الخوارج حتى قدم إلى الميدان بنفسه ، واستطاع المهلب أن يدفع الأزارقة إلى الفرار أمامه عائدين إلى فارس وتبعهم إلى أرجان ثم السروان حتى كازون فى نواحى سابور . واستمر القتال هناك أكثر من عام انسحب بعده الأزارقة من فارس عائدين إلى كرمان ، وظل المهلب يطاردهم حتى انتهوا إلى جيرفت .

وقد ذكرت هذه المواقع التى خاضها المهلب أمام الخوارج فى قصيدة طويلة لكعب الأشقرى وكان بجيش المهلب وحمل إلى الحجاج أنباء فرار الخوارج وهزيمتهم ، وقد ذكر فيها ما عاناه جند العراق من شدة الخوارج فى القتال ، وتفاقم أمرهم وخشية الناس من التعرض لقتالهم فى مثل قوله :

واستسلم الناس إذ حل العدو بهم ... فما لأمرهم ورد ولا صدر
كنا نهون قبل الموت شأنهم ... حتى تفاقم أمر كان يحتقر
لما وهنّا وقد حلوا بساحتنا ... واستنفر الناس تارات فما نفروا
نادى امرؤ لا خلاف فى عشيرته ... عنه وليس به عن مثلها قصر[1]

ومضى يعدد انتصارات المهلب عليهم فى سابور ودشت بارين وجبرين والأهواز ولم يستكثر على الخوارج أن يصفهم بالبطولة والبسالة فى قوله :

نلقى مساعير أبطالا كأنهم ... جن نقارعهم ما مثلهم بشر
نسقى ونسقيهم سمًّا على حنق ... مستأنفى الليل حتى أسفر السحر
قتلى هنالك لا عقل ولا قود ... منا ومنهم دماء سفكها هدر
حتى تنحوا لنا عنها تسوقهم ... منا ليوث إذا ما أقدموا جسروا
لم يغن عنهم غداة التل كيدهم ... عند الطعان ولا المكر الذى مكروا

وقد فخر أعشى همدان بتصدى المهلب لهم وإحباطه لخططهم ثم جعل يتحدث عن هزيمتهم الأخيرة فى كرمان وكيف أنها كانت اشتفاء من الخوارج وإدراكاً للثأر منهم فقال :

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٢٧٠ .

لما زواهم إلى كرمان وانصدعوا ... وقد تقاربت الآجال والقدر
سرنا إليهم بمثل الموج وازدلفوا ... وقبل ذلك كانت بيننا مئر
وزادنا حنقاً قتلى نذكرها ... لا تستفيق عيون كلما ذكروا
إذا ذكرنا جروزاً والذين بها ... قتلى مضى لهم حولان ما قبروا
تأبى علينا حزازات النفوس فما ... نبقى عليهم وما يبقون إن قدروا
ولا يقيلوننا فى الحرب عثرتنا ... ولا نقيلهم يوماً إذا عثروا
لا عذر يقبل منا دون أنفسنا ... ولا لهم عندنا عذر لو اعتذروا

وعاد يفخر بالمهلب ويشيد به ويجعله مخلصاً من أهل الكفر والغدر فى قوله :

لولا المهلب للجيش الذى وردوا ... أنهار كرمان بعد الله ما صدروا
إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا ... بالمحكمات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا ... ديناً يخالف ما جاءت به النذر (١)

وقد سأل الحجاج كعباً كيف فاتهم قطرى ؛ فقال إنهم كادوه فتحول عن منزله وظن أنه قد كادهم وأنهم لم يتبعوه لأن الليل حال بينه وبينهم . وكان على المهلب أن يقضى فى مناوشة الأزارقة بعد فرارهم إلى جيرفت ثمانية عشر شهراً حتى يقهرهم تماماً .

وقد اعتقد الحجاج أنه إنما تعمد أن يطيل الحرب حتى يحتفظ لنفسه بالقيادة ويستغل إدارته لإقليم فارس فى جباية خراجه أطول مدة ممكنة ، فأخذ الحجاج يضغط عليه ورفع منه إدارة الإقليم وجباية الخراج ولكن المهلب لم يتأثر بذلك فقد كانت خطته تعتمد على الترقب والانتظار للفرص .

وكتب الحجاج أثناء هذه الفترة إلى المهلب يحضه على مناجزة الأزارقة ويستبطئه ويضعفه ويعجزه فى تأخيره أمرهم وطلبهم ؛ ورد المهلب على رسوله بأن البلاء فى أن الأمر إلى من يملكه لا إلى من يعرفه ، وطلب أن يترك له الأمر يدبره كما يراه وإلا فللحجاج أن يبعث مكانه من يراه ، وكتب بمثل ذلك إلى عبد الملك من

(١) الطبرى ٧ ص ٢٧٣ ، والأغانى جـ ١٣ ص ٥٥

فوره ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج بألا يعارض المهلب فيما يراه ، ولا أن يعجله وقد ذكر ذلك شاعر المهلب كعب بن معدان الأشقرى فى حضرة رسول الحجاج ، وفى أبياته ما يشعر بقسوة القتال وشدة بأس الأزارقة إذ يقول :

إن ابن يوسف غره من غزوكم ... خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ... ضاقت عليه رحيبة الأقطار
من أرض سابور الجنود وخيلنا ... مثل القداح بريتها بشفار
من كل جندى غذى بلبانه ... وقع الطباق مع القنا الخطار[1]

وجاءت المهلب الفرصة عندما دب الخلاف بين الأزارقة فأخذ فريق منهم فى الشغب على قطرى والمخالفة عنه لأمور شرعية . وكان هؤلاء المعارضون من الموالى بزعامة عبد ربه الصغير أحد موالى قيس بن ثعلبة وكان معلم كتّاب وبايعه المعارضون إماماً وانضم إليه بعض العرب بزعامة عمرو القنا ، ولا يمكن أن يكون المهلب بعيداً عن إثارة هذا الخلاف ، وقد انقسمت قوة الأزارقة بهذا إلى قسمين ، فانحاز عبد ربه بأكبرهما وبقى قطرى فى قلة من الجند . وابتدأ القتال بين فريقى الأزارقة واستمر شهراً ، وبقى المهلب هادئاً حتى لا يكون هجومه عليهم دافعاً للم شعثهم . ولم يفلح صالح بن مخراق العبدى الذى فطن إلى خطورة الموقف فى أن يعيد الأزارقة إلى اجتماع الكلمة بمحاولته نقل القتال إلى جيش المهلب ، ولكنه لا يلبث حتى يختلف هو الآخر مع قطرى فيقتله أحد القطريين .

وقد ضاعت سدى صرخات الشعراء الأزارقة الذين حاولوا الوقوف فى وجه الفتنة فأخفقوا وأعلنوا استنكارهم لما وقع كما فى هذه الأبيات التى تنسب إلى زيد ابن جندب الإيادى تارة وإلى الصلت بن مرة تارة أخرى والتى تقول :

قل للمحلين قد قرت عيونكم ... بفرقة القوم والبغضاء والحرب
كنا أناساً على دين ففرقنا ... قرع الكلام وخلط الجد باللعب

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٨ .

ما كان أغنى رجالا ضل سعيهم عن الجدال وأغناهم عن الخطب
إنى لأهونكم فى الأرض مضطرباً مالى سوى فرسى والرمح من نشب[1]

ونجح عبد ربه وحزبه فى إخراج قطرى فيمن تبعه من جيرفت ، فخندق قطرى على باب المدينة واستمر يناوشهم قليلا ثم ارتحل إلى طبرستان ، واستطاع المهلب أن يهزم عبد ربه وأن يقضى على أتباعه قضاءً تامًّا وعاد إلى البصرة فدخلها دخول الفاتحين .

وكوفئ المهلب على نجاحه بولاية خراسان سنة ٧٨ هـ وقد تردد انتصاره على الأزارقة من أتباع عبد ربه فى شعر شاعره كعب الأشقرى من مثل قوله فى قصيدة يمدح فيها عبد الملك ويشيد بقومه من الأزد ، وإن لم يبخل على الخوارج بأن يشيد ببطولتهم .

سلوا أهل البطائح من قريش عن العز المؤيد أين سارا
ومن يحمى الثغور إذا استدرت حروب لا ينون لها غرارا
لقومى الأزد فى الغمرات أمضى وأوفى ذمة وأعز جارا
هم قادوا الجياد على وجاها من الأمصار تقدفن المهارا
بكل مفازة وبكل سهب بسابس لا ترون لها منارا
إلى كرمان يحملن المنايا بكل ثنية توقدن نارا
شواذب لم يثبن الثأر حتى رددناها مكلبة مرارا
ويشجرن العوالى السمر حتى ترى فيها عن الأسل ازورارا
غداة تركن مصرع عبد رب يثرن عليه من رهج عصارا
ويوم الزحف بالأهواز ظلنا نروّى منهم الأسل الحرارا
فقرت أعين كانت حديثاً ولم يك نومها إلا غرارا
صنائعنا السوابغ والمذاكى ومن بالمصر يحتلب العشارا
فهن يبحن كل حمى عزيز ويحمين الحقائق والذمارا

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٠ .

طوالات المتون يصبن إلا إذا سار المهلب حيث سارا
فلولا الشيخ بالمصرين ينفى عدوهم لقد تركوا الديارا
ولكن قارع الأبطال حتى أصابوا الأمن واجتنبوا الفرارا[1]

وقد صور الشعراء الأمويون هزيمة الأزارقة فى مواضع كثيرة من شعرهم ، فهذا الطفيل بن عامر بن واثلة يصف ما أنزله المهلب بعبد ربه من العقاب ويصم قطرياً بالكفر والضلال فيقول :

لقد مس منا عبدَ رب وجنده عقاب فأمسى سبيهم فى المقاسم
وما قطرى الكفر إلا نعامة طريد يدوى ليله غير نائم
إذا افرّ منا هارباً كان وجهه طريقاً سوى قصد الهدى والمعالم
فليس بمنجيه الفرار وإن جرت به الفلك فى لج من البحر دائم[2]

ووجه الحجاج بعد ذلك جيشاً إلى قطرى فى طبرستان بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى ، وكان هذا الجيش من أهل الشام قد نجح وشيكاً فى القضاء على الشبيبية عند نهر دجيل ، وخف لمؤازرته إسحق بن محمد بن الأشعث فى جيش من أهل الكوفة ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف بجيش من الرى ، وسارت هذه الجيوش الثلاثة فى طلب قطرى مجتمعة حتى لحقوا به فى شعب من شعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ، وانجلت المعركة عن قتل قطرى وأخذ رأسه إلى الحجاج فأرسلها إلى عبد الملك .

واتجه سفيان بن الأبرد الكلبى إلى عبيدة بن هلال الذى تحصن فى جماعة من الأزارقة بقصر قوس حتى أحاط بهم ، وأمر مناديه فنادى « أيما رجل قتل صاحبه ثم خرج إلينا فهو آمن » وقد سخر عبيدة من سفيان فى أبيات له رفض فيها نداءه تقول :

لعمرى لقد قام الأصم بخطبة لذى الشك منها فى الصدور غليل

---

(١) الأغانى جـ ٣ ٥٩ — ٦٠ .
(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٢٧٤ .

لعمرى لئن أعطيت سفيان بيعتى ... وفارقت دينى إننى لجهول
إلى الله أشكو ما ترى بجيادنا ... تساوك هزلى مخهن قليل
تعاورها القذّاف من كل جانب ... بقومس حتى صعبهن ذلول
فإن يك أفناها الحصار فربما ... تشحط فيما بينهن قتيل
وقد كن مما أن يقدن على الوجى ... لهن بأبواب القباب صهيل[1]

وواضح من الأبيات أن جيش الشام قد أطال الحصار وأحكمه حتى أجهدهم وأجهد جيادهم وتذكر الروايات أنهم أكلوا جيادهم ثم لم يجدوا بدًّا من الخروج إلى أهل الشام فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم وبعث برءوسهم إلى الحجاج .

وفى الوقت الذى كان فيه الأزارقة يهددون البصرة كان إخوان لهم من الخوارج المعروفين بالصفرية قد قدموا من ناحية الموصل يهددون الكوفة بزعامة صالح بن مسرح وكانت جمهرة هؤلاء الخوارج من ربيعة سكان هذه النواحى الواقعة على جانبى الدجلة وعلى الأخص من بنى شيبان بن بكر .

وكان صالح قد قام بتربية رفاقه تربية دينية وعسكرية طوال عشرين عاماً لم يتعجل فيها الخروج حتى كان صفر من سنة ٧٦ هـ فبدأوا يغيرون على النواحى القريبة فى دارا ونصيبين وسنجار فتصدت لهم قوات قيسية بعثها إليهم والى الجزيرة محمد بن مروان ولكنهم على الرغم من قلة عددهم الذى لم يتجاوز المائة والعشرين خدعوا الجيش القيسى المؤلف من ألف رجل عن نفسه وهزموه هزيمة منكرة فى سوق دوغان ولكنهم لم يصبروا فى لقائهم الثانى معه عند آمد فأخلوا أرض الجزيرة منحرفين ناحية الكوفة حيث وقعوا فى نفوذ الحجاج الذى أرسل إليهم جيشاً كوفياً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة الحارث بن عميرة الهمذانى والتقى بهم فى قرية المذبح من أرض الموصل فى جمادى الأول سنة ٧٦ هـ حيث انهزموا وقتل قائدهم صالح بن مسرح وآلت قيادتهم إلى قائد شاب خارق

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٢٧٥ .

الشجاعة هو شبيب بن يزيد الشيبانى الذى اتجه بهم إلى الموصل واستطاع أن يفزع المنطقة ثم مضى إلى أرض جوخى مستغلاً طبيعتها الملائمة لما يشبه حرب العصابات واستطاع أن يهزم جيش الدولة مرتين فى خانقين والنهروان كما لم يتمكن جيش ثالث من أربعة آلاف رجل بعث به الحجاج بقيادة الجزل بن سعيد أن ينال أمامهم شيئاً فعزله الحجاج وولى مكانه سعيد بن المجالد الهمدانى ولكنه هزم أيضاً أمام شبيب ورفاقه هزيمة منكرة وتولى القائد السابق الجزل ابن سعيد قيادة الفل وإن لم يغن به شيئاً فأثبتته الجراحات فحمل مثخنا إلى المدائن .

ومضى شبيب فعبر الدجلة عند الكرخ ومزق فى طريقه جيشاً اعترضه ثم عبر الفرات إلى خفان يقتل من يعترضه ، وعندما خرج الحجاج للقائه بنفسه بظاهر البصرة تلقى نبأ ظهوره بأطراف الكوفة فعاد على وجهه إليها ليجد شبيباً فى مائتى رجل أمامها . ولما كان الليل دخل فى أصحابه الكوفة حتى انتهوا إلى السوق وشد شبيب حتى ضرب باب القصر وأتاح لزوجه غزالة أن تصلى ركعتين بمسجد الكوفة تحقيقاً لما كانت قد نذرت .

وقد أتاح شبيب بمراوغته وشجاعته لبعض شعراء الخوارج أن يسخروا من الحجاج كسخرية عمران بن حطان الشاعر الصفرى الذى طلبه الحجاج فكتب إليه عمران متهكماً بعجزه عن أن ينال غزالة التى دخلت وزوجها الكوفة فلم يقدر على مواجهتها وتحصن دونها مغلقاً عليه باب القصر ، تقول أبيات عمران :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... ربذاء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الضحى ... بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت مدابره كإست الدابر[1]

وظل شبيب يناوىء جيوش الدولة ويهزمها واحداً إثر واحد فيما يشبه الأساطير

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٥ .

فقد هزم جيشاً ضخماً بقيادة زائدة بن قدامة الثقفى ، وقتل زائدة ثم أرهق جيشا تتبعه بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى عزله الحجاج استبطاء ، وأحل محله عثمان بن قطن الذى لقى وجيشه هزيمة منكرة ، وعاد ابن الأشعث بفلول جيشه إلى الكوفة ، ونجح شبيب فى أن يضيع على الحجاج خراج مناطق واسعة وأن ينتهب دور الأموال فى طريقه وأن يضم إليه كل ساخط على الحجاج حتى كثر جنده وأتاحت له الميول الخارجية لمطرف بن شعبة والى المدائن وتحرجه من قتال الخوارج أن يستولى على المدائن ، وبهذا أصبح له مركز منيع استطاع منه أن يهزم جيشاً بقيادة عتاب بن ورقاء وأن يقتله كما مزق جيشاً آخر اعترضه ثم قطع الجسر وعسكر دون الكوفة من جديد حتى بنى مسجداً لزوجه وبات يهدد ملك الأمويين وينازعهم سلطانهم وإمارة المؤمنين كما جاء فى قول شاعره عتبان بن وصيلة الشيبانى فى أبيات وجه بها إلى عبد الملك :

ألا أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... وذو النصح لو يرعى إليه قريب
فإنك إن لا ترضِ بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب
ولا صلح ما دامت منابر أرضنا ... يقوم عليها من ثقيف خطيب
فإن يك منكم كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنا سويد والبطين وقعنب ... ومنا أمير المؤمنين شبيب
فوارسنا من يلقهم يلق حتفه ... ومن ينج منهم ينج وهو سليب[1]

وإزاء هذا كله لم يجد الحجاج بدًّا من أن يطلب جيشاً شاميًّا فأتاه جيش يقوده سفيان بن الأبرد الكلبى فى أربعة آلاف فى الوقت المناسب ، وشهد الحجاج بنفسه التقاء الفريقين وبرز فى القتال خالد بن عتاب بن ورقاء الذى ثأر لأبيه فقتلت غزالة وكان لنبأ مقتلها أثر سيئ على شبيب الذى خاض معركة أخرى فى الأنبار انسحب على إثرها بقية فرسانه المخلصين بعد أن تخلى عنه جمهور رجاله متابعين مصقلة بن مهلهل الضبى الذى نافسه بسلطان صالح ابن مسرح .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٢٢٨.

وفكر شبيب فى اللحاق بالأزارقة فى كرمان فعبر دجيل عند الأهواز متجهاً إليهم ولكن سفيان تصدى له معترضاً طريقه وزاحفه شبيب نحواً من ثلاثين زحفاً واستمر القتال وامتد إلى الجسر حيث قاتل شبيب ببسالة إلى أن سقط غريقاً فى النهر .

ولم ينته على الرغم من تلك الهزيمة نشاط الصفرية وإن توقف نشاطهم قليلا فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى سلك معهم سبيل اللين ومقارعة الحجة بالحجة ولكنهم استأنفوا عملهم فى عهد هشام بن عبد الملك فخرجوا فى جماعات قليلة العدد بقيادة بهلول بن بشر ثم بقيادة الصحارى بن شبيب واتخذ نشاطهم أسلوباً آخر فى إبان انهيار الدولة الأموية فقد عولوا على أسلوب الثورة الشاملة إذ ثار سعيد بن بحدل الشيبانى فى العراق بعد اغتيال الوليد الثانى ولكنه قضى نحبه بعد إعلان الثورة بقليل فخلفه الضحاك بن قيس الشيبانى ، ونجح فى الاستيلاء على أرمينية وأذربيجان وعلى الرغم من اتحاد واليى العراق المتنابذين فى ذلك الحين على حربه فقد نجح أيضاً فى هزيمتهما معاً هزيمة منكرة ففر أحدهما وهو ابن الحرشى إلى مروان بن محمد بينما فر الثانى وهو ابن عمر بن عبد العزيز إلى واسط ولكن الضحاك استمالة كما استمال القائد الأموى منصور بن جمهور فدخلا فى طاعته وتوليا بعض أعماله وأسلما على عقيدة الخوارج وصليا خلف الضحاك حتى جعل بعض الشعراء يتندر بذلك فى قوله :

ألم تر أن الله أظهر دينه فصلت قريش خلف بكر بن وائل[1]

ولم يصل ابن عمر خلف الضحاك فحسب ، وإنما عمل له فأدار النصف الشرقى من دولته الشاسعة وكذلك انضم إلى الضحاك سليمان بن هشام بن عبد الملك بفرقته المعروفة بالذكوانية ، وتذكر الروايات أن جيش الضحاك صار قوامه مائة وعشرين ألف رجل تراجع أمامهم جيش يقوده عبد الله بن مروان بن محمد فأقبل الخليفة بنفسه لمواجهته وتمكن من قتله وهزيمة جنده .

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٦٢ .

وآلت قيادة الخوارج إلى الخبيرى . وخاض مع جند مروان معركة أشرف فيها على الانتصار ولكنه قتل فانخذل جنده ، وخلفه أبو دلف الشيبانى فناوش الأمويين أشهراً دون انتصار حاسم ، ولما سقطت الكوفة من أيديهم ، وحصروا بين جيش ابن هبيرة ، وجيش آخر بقيادة عامر بن ضبارة ، فروا إلى الأهواز حيث انضموا إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر وطاردهم مروان فتفرقوا وقتل أبو دلف فى قتاله مع أمير عمان سنة ١٣٤ هـ

وعلى الرغم من كثرة الحروب والوقائع التى خاضها الصفرية ضد الدولة فإن شعرهم لا يواكب هذه الأحداث أدنى مواكبة ، ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى أن أشهر شعرائهم وهما عمران بن حطان والطرماح بن حكيم كانا من القعد ولم يكونا يريان الخروج فلم يتح لهما اعتدالهما وقعودهما أن يشتركا فى حروبهم وأن يسجلاها ، ولسنا نجد فى شعرهما ذكراً لمواقع محددة إلا ما كان من تقريع عمران للحجاج على جبنه عن مواجهة غزالة وزوجها وكان مثلهما فى إيثار القعود حبيب بن حدرة الذى كان من أصحاب الضحاك ، وإن كان قد ندم على خذلانه لإخوانه فى رثائه لملحان الشيبانى عامل الضحاك على الكوفة ، إذ يقول :

كَأَيِّن كملحان من شار أخى ثقة ... أو ابن علقمة المستشهد الشارى
من صادق كنت أصفيه مخالصتى ... فباع دارى بأغلى صفقة الدار
إخوان صدق أرجيهم وأخذلهم ... أشكو إلى الله خذلانى وإخفارى[1]

وكانت آخر حركات الخوارج فى العصر الأموى حركة الأباضية التى نشأت بأخرة حول عبد الله بن أباض التميمى ، واستغلت مواسم الحج فى الترويج لمذهبها ، وكانت أولى حركاتهم فى جنوب الجزيرة العربية عندما خرج عباد الرعينى فى اليمن محكماً سنة ١٠٧هـ ثم أعقبه خروج عبد الله بن يحيى الكندى فى حضرموت لعهد مروان بن محمد .

وقد بويع عبد الله إماماً للخوارج الأباضيين سنة ١٢٩هـ ، ولقب بطالب الحق ، وزحف إلى اليمن حيث توقف بصنعاء ، وهناك جاءه الخوارج من كل

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٦٥ .

مكان ، وارتفع شأنه هناك بسبب تحببه إلى أهل اليمن ، ولعدم تشدده فى تعاليمه التى لا تكاد تختلف عن مذهب أهل السنة فى شىء إلا ما يذهب إليه من تكفير مرتكب الكبيرة . وقد اتخذ القرآن الكريم إماماً ودعا إليه وإلى سنة النبى .

ويرجع الفضل فى ارتفاع شأن الأباضية بوجه خاص إلى داعيتها وخطيبها وقائد جندها الفذ أبى حمزة الشارى الذى كان فى الواقع أهم من عبد الله ابن يحيى نفسه وقد قاد جيشاً قوامه ألف رجل بينهم عدد كبير من وجوه أهل اليمن . واتجه بجيشه إلى مكة فى موسم الحج سنة ١٢٩ هـ حيث اضطر الأمير الأموى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الفرار أمامه ، وقد تحدث بذلك بعض شعراء الحجاز فنعى على الأمير جبنه وتقاعسه فى قوله :

زار الحجيج عصابة قد خالفوا ... دين الإله ففر عبد الواحد
ترك الإمارة والحلائل هاربا ... ومضى يخبط كالبعير الشارد
ترك القتال وما به من علة ... إلا الوهون وعرفة من خالد
لو كان والده تخيّر أمة ... لصقت خلائقه بعرق الوالد[1]

ومن المدينة بعث عبد الواحد بجيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل بقيادة عبد العزيز بن عمر بن عثمان بن عفان ، وقد رغب أبو حمزة إليه عن القتال زاعماً أنه ليس من هدفه ، وأن هدفه الوحيد أن يمضى لقتال مروان بن محمد . ولكن عبد العزيز أبى عليه ذلك ، وأصر على قتاله فنزل أبو حمزة قديداً والتقى بجيش المدينة الذى ضم عدداً كبيراً من وجهاء قريش المتعجرفين فى ثيابهم الفاخرة ، ويبدو أنهم تصوروا الخوارج رعاعاً لن يلبثوا طويلا حتى يفروا أمامهم ، ولم يبدأهم أبو حمزة بقتال إلا بعد أن هاجموه ، فوثب بهم وثبة نكراء وامتلأ الميدان بجثث القرشيين ممثلى الحكومة الكافرة ، وبينما لم يسمح بمطاردة فل الجيش المدينى صب غضبه على القرشيين وقتل الأسرى منهم حتى لتعد معركة قديد بمثابة مذبحة للغطرسة الأموية ، وقد تركت قديد فى الشعر آثاراً

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٠ .

كثيرة ، وحزناً شديداً فى نفوس أهل المدينة وكانت النائحات ينحن فى المدينة بمثل هذا الشعر :

ما للزمان وماليه ... أفنت قديد رجاليهْ
فلأبكينّ سريرة ... ولأبكين علانيهْ
ولأبكينّ إذا خلو ... ت مع الكلاب العاويهْ
ولأثنينّ على قديدَ ... بسوء ما أبلانيه(١)

وقد فقد الأباضيون فى قديد فرساناً بكوهم بكاء حارًّا من مثل قول أبى حمزة إثر الموقعة :

يا لهف نفسى ولهف غير نافعة ... على فوارس بالبطحاء أنجاد
عمرو وعمرو وعبد الله بينهما ... وابناهماخامس والحارث الساد(٢)

وقد صور شاعر الأباضية عمرو بن الحصين ما كان فى يوم قديد تصويراً بارعاً . وما كان من دخولهم مكة وقد استهل قصيدته باستشعار الهلع خوفاً من الموت قبل إتمام الجهاد فقال :

ما بال همك ليس عنك بعازب ... يمرى سوابق دمعك المتساكب
وتبيت تكتلئ النجوم بمقلة ... عبرى تسر بكل نجم دائب
حذر المنية أن تجىء بداهة ... لم أقض من تبع الشراة مآربى
فأقود فيهم للعدا شنج النسا ... عبل الشوى أسوان ضمر الحالب
متحدراً كالسيل أخلص لونه ... ماء الحسيك مع الجلال اللاتب
أرمى به من جمع قومى معشراً ... بوراً إلى جبرية ومعايب
فى فتية صبر تألفهم به ... لف القداح يد المفيض الضارب
فندور نحن وهم وفيما بيننا ... كأس المنون تقول هل من شارب؟
فنظل نسقيهم ونشرب من قنا ... سمر ومرهفة النصول قواضب(٣)

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٢ .
(٢) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٠ .
(٣) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٣ .

ومن ثم أخذ يصف الخوارج وتقواهم ، وعباداتهم وصلاتهم وتلاوتهم وجهادهم فقال :

كم من أولى مقة صحبتهم شروا ... فخذلتهم ولبئس فعل الصاحب
متأوهين كأن فى أجوافهم ... ناراً تسعرها أكف حواطب
تلقاهم فتراهم من راكع ... أو ساجد متضرع أو ناحب
يتلو قوارع تمترى عبراته ... فيجودها مرى المرىء الحالب
سبر لجائفة الأمور أطبة ... للصدع ذى النبأ الجليل مدائب
ومبرئين من المعايب أحرزوا ... خصل المكارم أتقياء أطايب
عدوا صوارم للجلاد وباشروا ... حد الظباة بآنف وحواجب
ناطوا أمورهم بأمراخ لهم ... فرمى بهم قحم الطريق اللاحب
متسربلى حلق الحديد كأنهم ... أسد على لحق البطون سلاهب

ثم وقف عند المعركة وما كان من بلاء الشراة فيها ودخولهم مكة إثر انتصارهم فقال :

قيدت من اعلى حضرموت فلم تزل ... تنفى عداها جانباً عن جانب
تحمى أعنتها وتحوى نهبها ... لله أكرم فتية وأشايب
حتى وردن حياض مكة قطنا ... يحكين واردة اليمام القارب
ما إن أتين على أخى جبرية ... إلا تركنهم كأمس الذاهب
فى كل معترك لها من هامهم ... فلق وأيد علقت بمناكب
سائل بيوم قديد عن وقعاتها ... تخبرك عن وقعاتها بعجائب[1]

وقد انفتح الطريق أمام أبى حمزة إلى المدينة فدخلها دون قتال وألقى من فوق منبر الرسول خطبته الشهيرة التى أشاد فيها برجاله الشبان وبتقواهم وتخبتهم وبسالتهم مستعرضاً كل الذين تولوا خلافة المسلمين مصدراً حكمه عليهم . وقد مكث فى المدينة قرابة ثلاثة أشهر جهد خلالها فى أن يستهوى الأفئدة إليه

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٣ .

ولكن مهمته كانت صعبة فى مجتمع كالمجتمع المدنى اللاهى فلم يستجب له إلا القليل وهو يتشدد فى أمر الكبائر كإمامه ويحرص أشد الحرص على رعاية القيم الدينية والأخلاقية .

وفى مستهل جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ زحف جيش شامى مكون من أربعة آلاف من القيسيين يقوده عبد الملك بن محمد بن عطية فى طريقه إلى المدينة . وذاع خبر هذا الجيش وبالغ أهل الحجاز فى تقدير قوته ومضى شعراؤهم يخوفون الخوارج ويتوعدونهم بمثل قول أبى صخر الهذلى :

قل للذين استضعفوا لا تعجلوا ... أتاكم النصر وجيش جحفل
عشرون ألفاً كلهم متسربل ... يقدمهم جلد القوى مستبسل
دونكمُ ذا يمين فاقبلوا ... وواجهوا القوم ولا تستخجلوا
عبد المليك القلبى الحول ... أقسم لا يفلى ولا يرجل
حتى يبيد الأعور المضلل ... ويقتل الصباح والمفضل[1]

ولما أيقن أبو حمزة بقدوم جيش ابن عطية خرج فى جنده ينتظره فى وادى القرى والتقى الجيشان وتضعضع الأباضيون أمام جيش الشام وقتل جمهورهم ، واستطاع أبو حمزة أن ينحاز فى ثلاثين رجلا إلى المدينة ثم فر منها إلى مكة بعد أن استخلف عليها رجلا من أعوانه يدعى المفضل ، ولكن أهل المدينة ثاروا بالمفضل بقيادة عمر بن عبد الرحمن بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ونجحوا فى هزيمة الشراة والانتقام منهم ثأراً بما لقوه على أيديهم يوم قديد حتى ليقول شاعرهم سهيل أبو البيضاء مولى زينب بنت الحكم بن العاص :

ليت مروان رآنا ... يوم الاثنين عشيه
إذ غسلنا العار عنا ... وانتضينا المشرفيه[2]

وكان بين القتلى فى المدينة عبد العزيز بن بشكست النحوى فأنشد بعض

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٨ .
(٢) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٩ .

أهل المدينة فى ذلك :

لقد كان بشكست عبد العزيز من اهل القراءة والمسجد
فبعداً لبشكست عبد العزيز وأما القران فلا يبعد[١]

وفى مكة أقام أبو حمزة فى رجال قليلى العدد يدافعون عنها عبثاً ؛ والتقى بهم ابن عطية أسفلها ودارت معركة على فم الشعب قتل فيها أبو حمزة وقتلت امرأته مريم الجعيداء التى اشتركت مع زوجها فى القتال وكانت ترتجز بقولها :

أنا الجعيداء وبنت الأعلم من سال عن اسمى فاسمى مريم
بعت سوارىَّ بسيف مخذم[٢]

وصلب أبو حمزة مع من صلب من الشراة ، ثم زحف ابن عطية إلى الطائف ومنها إلى صنعاء حيث هزم عبد الله بن يحيى وقتله واستولى جيش الشام على صنعاء ثم على حضر موت ، وحمل رأس طالب الحق إلى مروان بن محمد ، وتغنى شاعر الأمويين بهذا الانتصار فقال أبو صخر الهذلى :

قتلنا دعيا والذى يكتنى الكنى أبا حمزة الغاوى المضل اليمانيا
وأبرهة الكندى حاضت رماحنا وبلجا صبحناه الحتوف القواضيا
وما تركت أسيافنا منذ جردت لمروان جباراً على الأرض عاديا[٣]

وقد رثى شاعر الأباضية عمرو بن الحصين إمامه طالب الحق وشيخه أبا حمزة فى قصيدة طويلة استهلها بالبكاء على هذا النحو :

هبت قبيل تبلج الفجر هند تقول ودمعها يجرى
إن أبصرت عينى مدامعها ينهل واكفها على النحر
أنى اعتراك وكنت عهدى لا سربَ الدموع وكنت ذا صبر
أقذىً بعينك لا يفارقها أم عائر ؟ أم مالها تذرى ؟
أم ذكر إخوان فجعت بهم سلكوا سبيلهم على خير
فأجبتها بل ذكر مصرعهم لا غيره عبراتها تمرى

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١١٠ .
(٢) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٩ .
(٣) الأغانى جـ ٢٠ ص ١١١ .

وخلص من ذلك إلى التحسر على أصحابه الشهداء متمنياً أن يسلك سبيلهم فى الشهادة وأخذ يشيد بسلوكهم وتقواهم وبسالتهم وكأنه ينظم خطبة أبى حمزة شعراً بقوله :

يا رب أسلكنى سبيلهم ذا العرش واشدد بالتقى أزرى
فى فتية صبروا نفوسهم للمشرفية والقنا السمر
تا لله ألقى الدهر مثلهم حتى أكون رهينة القبر
أوفى بذمتهم إذا عقدوا وأعف عند العسر واليسر
متأهلين لكل صالحة ناهون من لاقوا عن النكر
صُمُتٌ إذا احتضروا مجالسهم وُزُنٌ لقول خطيبهم وقر
ألا تجيبهمو فإنهمو رجف القلوب بحضرة الذكر
متأوهون كأن جمر غضى للخوف بين ضلوعهم يسرى
تلقاهم إلا كأنهم لخشوعهم صدروا عن الحشر
فهمُ كأن بهم جوى مرض أو مسهم طرف من السحر
لا ليلهم ليل فيلبسهم فيه غواشى النوم بالسكر
إلا كذا خاسا وآونة حذر العقاب وهم على ذعر

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكبابا لا ينامون معه إلا اختلاساً وآونة بعد أخرى ، ثم يعود إلى التفجع على أصحابه من شهداء الأباضية فيقول :

كم من أخ لك قد فجعت به قوّام ليلته إلى الفجر
متأوه يتلو قوارع من آى القران مفزع الصدر
نصب تجيش بنات مهجته من خوف جيش مشاشة القدر
ظمآن وقدة كل هاجرة ترّاك لذته على قدر
ترّاك ما تهوى النفوس إذا رغب النفوس دعت إلى النذر

ومضى بعد ذلك يشيد ببسالتهم فى القتال واحداً بعد واحد فذكر من رجال الشراة المختار وابن الحصين وبلج وأبرهة وعمرو والمسيب وذكر ما امتاز به

كل منهم من مهارة واقتدار ، وذكر غيرهم من الشراة الذين لم يسمهم بأسمائهم فقال :

فى مخبتين ولم أسمهم ... كانوا يدىّ وهم أولو نصرى
وهم مساعر فى الوغى رجح ... وخيار من يمشى على العفر
حتى وفوا لله حيث لقوا ... بعهود لا كذب ولا غدر
فتخالسوا مهجات أنفسهم ... وعداتهم بقواضب بتر
وأسنة واثنين فى لدن ... خطية بأكفهم زهر
تحت العجاج وفوقهم خرق ... تخفقن من سود ومن حمر
فتفرحت عنهم كأنهم ... لم يغمضوا عيناً على وتر
فشعارهم نيران حربهم ... مابين أعلى الشحر فالحجر
صرعى فخاجلة تنوبهم ... وجوامع لحمانهم تفرى[1]

وهكذا يخيل إلينا ونحن نقرأ قصيدة عمرو بن الحصين هذه أننا نقرأ فى خطبة أبى حمزة فى المدينة ، وهى قصيدة طويلة تبلغ خمسة وخمسين بيتاً . وهو طول نفس لم نعهده فى قصيدة ما للخوارج مما يجعلنا نعتقد أن ذلك يرجع إلى خصيصة فى الشاعر نفسه أتته من مزاجه الفارسى الواضح فى ميله إلى الاستقصاء والسرد القصصى .

ولعله اتضح لنا أن شعر الخوارج بعامة شعر قليل وأنه لم ينهض تماماً بتصوير وقائعهم . كما لم يستطيع أن يواكب أحداثهم مواكبة دقيقة ومفصلة وليس لذلك من سبب إلا أن الشعر لم يكن لديهم فنًّا ينقطعون له أو يتنافسون فى تجويده . وإنما هو تعبير عن مشاعرهم فى أحوال خاصة ، وهم فى تعبيرهم هذا لا يستمدون الأحداث الجزئية والوقائع المعينة ولكنهم يستمدون ينبوعاً واحداً ومبادئ واحدة ، ويتغنون بعاطفة واحدة وينزعون إلى هدف واحد قصروا شعرهم عليه .

وكان لهذا أثر واضح فى شعرهم تبين فى نسبة شعر بعضهم إلى البعض الآخر .

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١١١ — ١١٣

هذا إلى أن حياتهم القائمة على الجهاد والحرب والانتقاض على الدولة ، ومناوءتها ، لم تفسح لهم فرصاً للإكثار أو الإطالة . وهم فى هذا أشبه ما يكونون بالشعراء الصعاليك الجاهلين أو بشعراء الفتوح الإسلاميين .

وما أرانا بحاجة إلى أن نعود فنكرر أن الاضطهاد الذى أصابهم قد أصاب شعرهم وكان له أكبر الأثر فى ضياع جزء كبير منه .

وبينما يقصر شعر الخوارج عن تسجيل الأحداث التاريخية تسجيلا دقيقاً فإنه لا يقصر فى تصوير إيمانهم بعقيدتهم ومبادئهم وأفكارهم تصويراً رائعاً وإن لم يصور شعرهم تلك العقيدة وهذه المبادئ والأفكار فى حد ذاتها أدنى تصوير كما رأينا وكما سنرى .

٢

يكاد شعر الخوارج كله يذهب فى عدة أغراض محددة يجمعها الجهاد فى سبيل العقيدة ، وقد ألهمهم هذا الجهاد وإن لم تلهمهم تلك المبادئ المجردة التى جاهدوا من أجل تحقيقها ، ولهذا فلسنا واجدين لديهم شعراً مذهبيًّا بمعنى الكلمة وإنما هو شعر يذهب فى مجموعه فى تصوير حروبهم وتمجيد أبطالهم وقوادهم والإشادة بشجاعتهم وتفانيهم فى الاستشهاد وطلب الثواب والجنة جزاء جهادهم واستعذاب فظائع ما يتكبدون زلفى إلى الله مطنبين فى تمجيد شهدائهم وتقديسهم.

ولم يذهب شعرهم هذا المذهب إلا لأنهم عاشوا حياتهم كلها يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر ، وكأنهم عاشوا للقتال فحسب مستحلين دماء إخوانهم المسلمين وكان لزاماً أن تطبع هذه الحياة شعرهم بطوابع تميزه عن شعر الفرق الأخرى .

فشعرهم شعر ثوار ترافقهم السيوف فى حلهم وترحالهم مستعذبين الموت غير آبهين بالدنيا ولهذا فقد جاء شعرهم فى كثرته حماسيًّا ، ولكنها حماسة غير تلك الحماسة التى يعرفها الشعر العربى والتى تدفعها العصبيات القبلية القائمة على الذحول والثارات ، فهى حماسة من لون آخر ، يحركها تعصب شديد

لعقيدتهم التى تعمقوها مؤمنين بها إيماناً يفوق كل إيمان ، واثقين أنها وحدها هى العقيدة الصحيحة ، وأن كل من انحرف عنها فقد انحرف عن الإيمان إلى الكفر ، معتقدين بأن عليهم أن يرخصوا أنفسهم وأرواحهم فى سبيلها حتى يفوزوا برضوان الله وثوابه ، وعلى هذا التصور يصبح جهاد الجماعة الضالة عن العقيدة الصحيحة فريضة دينية واجبة ومقدسة .

ونكاد نشعر ونحن نقرأ فى أشعارهم بإيمانهم بأن الإسلام لا يتجاوز حدود معسكراتهم وأن من عداهم من المسلمين ضال ومحل وكافر كما فى قول سبرة بن الجعد فى حديثه عن نفسه :

رأى الناس إلا من رأى مثل دينه ملاعين تراكين قصد المخارج[1]

فزقوا بهذا التصور شمل الجماعة الإسلامية واقتضاهم هذا الاعتقاد أن تظل سيوفهم مشرعة فى وجه الجماعة أبداً ، وهذا غلو لاشك فى تطرفه ومجانبته لروح الاعتدال والقصد وكان الخوارج غالين أيضاً فى رفضهم للحياة الدنيا رفضاً تاماً ، تلك الحياة التى أحبها غيرهم وانخدعوا بها وساروا فى طريقها . ولكن الخوارج باعوها وجاهدوها كما جاهدوا طلابها ووطنوا أنفسهم على طلب الشهادة فى ميدان الجهاد عن عقيدتهم ، فكان بينهم من إذا طعن فأنفذه الرمح جعل يسعى به إلى قاتله وهو يقول : وعجلت إليك رب لترضى[2] ومنهم من استقبل الموت فى النهروان بقوله : حبذا الرواح إلى الجنة ، ولهم فى استصغار شأن الحياة والتهوين من أمرها أخبار كثيرة وشعر من ذلك ما أنشده رجل منهم قدمه الحجاج إلى القتل فقال :

ما رغبة النفس فى الحياة وإن عاشت قليلا فالموت لاحقها
وأيقنت أنها تعود كما كان يراها بالأمس خالقها
يوشك من فر من منيته فى بعض غراته يوافقها
من لم يمت عبطة يمت هرماً والموت كأس والمرء ذائقها[3]

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٣ .
(٢) الكامل ص ٥٦٤ .
(٣) الكامل ص ٤٣ .

ويربط الطرماح بين تكفير كل من لم يسلك سبيل الخوارج ، وهو يعده من أهل النار ، بطلب الاستشهاد فيعد الاستشهاد الخلاص الوحيد لهؤلاء من عذاب الجحيم إذ يقول :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له إن لم أفز فوزة تنجى من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد إلا المنيب بقلب المخلص الشارى[١]

وبهذه الصورة كان الموت قعصاً بالرماح أمنية كل خارجى حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، وتكاد رغبتهم فى الموت فى سبيل عقيدتهم تغلب رغبتهم فى تحقيق أهدافهم التى خرجوا انتصاراً لها وحتى ليصبح رفض الحياة وطلب الموت لديهم هدفاً يطلب لذاته لا يعتوره حزن أو أسف ، ولا يسلم إلى يأس ، حتى لنشعر أن الموت عندهم على هذه الصورة لون من ألوان الأمل وضرب من الأمانى لأنه لا يعنى لديهم غير دخول الجنة ولقاء الإخوان الأبرار الأتقياء الذين تقدموهم على الطريق .

ونحن نقرأ شعرهم فى هذا الموضوع فنشعر بأن الاستشهاد غاية تلتقى عندها أحلام الشراة ، يقول البهلول بن بشر :

من كان يكره أن يلقى منيته فالموت أشهى إلى قلبى من العسل
فلا التقدم فى الهيجاء يعجلنى ولا الحذار ينجينى من الأجل[٢]

ولكى ينال الخارجى هذه الغاية فهو حريص على التأهب لها تأهباً والعناية بها كما لا يعنى بالنصر أو الظفر ، من مثل قول يزيد بن حبناء الأزرقى :

أبيت وسربالى دلاص حصينة ومغفرها والسيف فوق الحيازم
أريد ثواب الله يوماً بطعنة غموس كشدق العنبرى بن سالم[٣]

وهم لا يكتفون بانتظار تحقق هذا الأمل وإنما يتعجلونه تعجلا يضيق بالحياة الدنيا ويتصورها جاثمة كالأزل لا تريد أن تزول وأن العيش أيضاً لا يريد أن ينقضى

---

(١) الديوان ص ١٤٩ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .
(٢) أنساب الأشراف جـ ٨ ص ٢٣١ .
(٣) الكامل / ص ٥٦٥ .

وهم لهذا يتلومون السيوف التى لا تقربهم من حمامهم على الرغم من كثرة قراعهم وتعرضهم للأخطار كما فى قول قطرى بن الفجاءة :

إلى كم تعارينى السيوف ولا أرى ... معاراتها تدعو إلىّ حماميا
أقارع عن دار الخلود ولا أرى ... بقاء على حال لمن ليس باقيا
ولو قرب الموت القراع لقد أنى ... لموتى أن يدنو لطول قراعيا[1]

وقريب من هذا قول زياد الأعسم الذى كان يشعر بمنتهى الملل من الحياة ويستبطئ زوالها فى قوله :

أقيم على الدنيا كأنى لا أرى ... زوالا لها وأحسب العيش باقيا[2]

وتدور أشعار كثيرة لهم على فكرة تعجل الموت واستطالة الحياة ، والحرص على التخلص منها بالاستشهاد الذى يحقق لهم هدفين فى وقت واحد هما اللحاق بالله سبحانه وتعالى واللحاق بإخوانهم السابقين ، وتدعى الشهادة عند بعضهم بالتقى كما فى قول أبى بلال مرداس بن أدية عند خروجه راغباً فى الاستشهاد ليحقق أهدافه :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى ... ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجى سلامة ... وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتى وبصيرتى ... وهب لى التقى حتى ألاقى أولئكا[3]

فهو يخرج طلبا للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب ويزيد بن حصن وغيرهما من الذين سبقوه من رفاقه داعياً ربه أن ينيله طلبته فيقتل فى سبيل عقيدته ، وكذلك يقول الطرماح :

كيف أرجى الحياة بعدهم ... وقد قضى مؤنسىّ فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم ... بالفوز مما يخاف قد وثقوا[4]

---

(١) أمالى المرتضى جـ ٣ ص ٩٠ .
(٢) أنساب الأشراف جـ ٧ ص ١٠٢ .
(٣) الكامل ص ٥٨٦ .
(٤) الديوان ص ١٥٧ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .

فهذه الفكرة بطبيعة الحال ليست إلا انعكاساً للثورة على الواقع السيء فإذا الموت يبرق لهم من مكمنه على أنه المخلص الوحيد ، وهو على هذه الصورة الرائعة من الاستشهاد أنجح الوسائل فى مقاومة الحياة السيئة والعيش الزائف ولا سبيل إلى الانتصار على هذه الحياة إلا بالموت الذى يخلصهم من الأذى كما يقول الطرماح فى صفة الشراة :

إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحف[١]

ويذهب إلى نفس المعنى قطرى بن الفجاءة فى قوله :

وما للمرء خير فى حياة إذا ماعد من سقط المتاع[٢]

ولهذا كانوا يتعجلون هذا الخلاص ابتغاء للانتصار على هذه الحياة ، وهو انتصار لا يعدله لديهم انتصار آخر ، وفى هذا تبرير لما نراه من حرصهم الشديد على الموت حتى ليخيل إلينا أنه كان أشد من حرصهم على الظفر فى المواقع إذ أن الظفر بعدوهم لم يكن ليخلصهم من سوءة الحياة مادام الأمر بتمامه لا يكون فيهم لكى يقيموا الحياة الحقيقية ، بينما الظفر بالموت يتيح لهم انتصاراً حقيقياً يخلصهم من سوء الحياة وزيفها ولهذا نجد بعضهم يتمنى أن يسبقه عدوه إلى قتله كما فى قول معاذ بن جوين الطائى :

وياليتنى فيكم أعادى عدوكم فيسقينى كأس المنية أولا[٣]

وقد دار لهم شعر كثير حول فكرة السأم من الحياة ، والتهافت على حياض الموت كالفراش فى تهافته على النار ، وكأنهم يسعون جاهدين إلى اختصار المسافة بينهم وبين الموت المقرب من الله والإخوان وحتى لتبدو صورة الحياة فى شعرهم ملولة ومملة وحتى ليشعر الواحد منهم بالسآمة عندما يجد أن رأسه لا يزال فوق كتفيه ، لم يحمل عنه ثقله فتى من أعدائه لا فرق فى ذلك عندهم بين رجل وامرأة كما فى قول تلك الأزرقية الباسلة أم حكيم والتى ذكرت فى شعر قطرى :

---

(١) الديوان ص ١٥٥ الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .
(٢) شرح التبريزى للحماسة جـ ١ ص ٥٠ .
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٧ .

وذكرت الروايات أنها كانت تتقدم الصفوف فى المعارك وهى تنشد :

أحمل رأساً قد سئمت حملهْ وقد سئمت دهنه وغسلهْ
ألا فتى يحمل عنى ثقلهْ [١]

وهكذا تستحيل الحياة لديهم ذميمة دنيئة مملة ولا خير فيها حتى ليتنكبها كل منهم زاهداً فيها طالباً الموت حتى يلتقى بالله وبإخوانه فى الجنان كما تصور ذلك أبياتاً للحويرث الراسبى تقول :

أقول لنفسى فى الخلاء ألومها هبلت دعينى قد مللت من العمر
ومن عيشة لا خير فيها دنيئة مذممة عند الكرام ذوى الصبر
سأركب حوباء الأمور لعلنى ألاقى الذى لاقى المحرق فى القصر [٢]

وتكاد الأبيات تفصح عن صراع فى دخيلة الشاعر بين ميله للبقاء وحب العيش ورغبته فى الخلاص من الحياة ، وهو صراع لا يدل على شك الشاعر أو تردده فى اعتقاده بقدر ما يدل على صدقه فى موقفه من نفسه ، فهو إذن صراع إنسانى طبيعى لا يدينه إظهاره كما لا يسمو بغيره أن يستره ويخفيه . ويبلغ عمران بن قحطان الصفرى ذروة الشعور فى استبطائه الموت فى قوله :

أفى كل عام مرضة ثم نقهة وينعى ولا ينعى ؟ متى ذا إلى متى ؟ [٣]

وحقاً هو استبطاء للموت وليس استبطاء للاستشهاد إذ كان الشاعر من رءوس القعد الصفريين الذين لا يرون القتال ولا يخفون إليه ، وكأن هؤلاء القعدة قد رأوا فى طلب الموت قعصاً بالرماح غاية عسيرة على النفوس الإنسانية فثاروا على هذه الغاية وتغلب حب الحياة لديهم على الرغبة فى الخلاص منها ، وكانت نتيجة ذلك أن ظهر فى الشعر الخارجى نزوع إلى التلاوم النفسى بلغ عند البعض مبلغ الشعور بالخذلان ، كما يصور ذلك قول

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٦ .
(٢) أنساب الأشراف جـ ٧ ص ٨٧ .
(٣) شرح نهج البلاغة جـ ٣ ص ٥٦ .

حبيب بين حدرة وقد ظن بنفسه التقصير لأنه لم يلحق بإخوانه الذين تقدموه :

إخوان صدق أرجيهم وأخذلهم أشكو إلى الله خذلانى وإغفارى[١]

وهكذا كان أولئك الذين ضنوا بأرواحهم عن البذل فى ميادين القتال يقعون فريسة للإحساس بالذنب الذى يعصف بأمنهم للحياة ويجعلهم يضيقون بتلك الحياة التى آثروها ويتمنون الخلاص منها . وقد اشتد التلاوم أيضاً بين الخوارج المتشددين ممن لا يرى القعود اعتقاداً من بعضهم أن كل ما هو دون طلب الموت ولقائه مباشرة تقصير وتردد وجبن حتى لا يسلم البطل المراوغ منهم من أن يظن به الضعف والخور كما ظن ذلك أحد الخوارج بقائده قطرى بن الفجاءة فى تنقله من بلد إلى بلد إذ رأى فى هذه المراوغة إيثاراً من قطرى للسلامة مدفوعاً إليه بحبه للحياة الذى لم يبرأ منه فتوجه إليه باللوم على هذه المراوغة ، واضطر قطرى أن يدافع عن نفسه وأن يفسر موقفه بإزاء هذا الاتهام فقال :

«هربنا نريدالخفض من غير علة وللحرب نار لا تفل ومخلب»

فقولا لأصحاب القران نصيحة دعوا الظن إنالظن بالناس يكذب[٢]

وكذلك توجه إليه آخر عندما هم بالنزوح إلى كرمان بالأزارقة ، فندد به ونعى عليه أن يفر أمام الكفار والمبطلين وهو على الحق ، وكأنما يرميه بالتحير والشك فى اعتقاده ، كما خوفه من العار الذى يلحق به فى لجوئه إلى الفرار بقوله :

أيا قطرى الخير إن كنت هارباً ستلبسنا عاراً وأنت مهاجر

فحتى متى هذا الفرار مخافة وأنت ولى والمهلب كافر[٣]

وهكذا غلا الخوارج وبخاصة الأزارقة منهم فى رفض الحياة والتعلق بالموت ، ورأوا الاستشهاد غاية قصوى لجهادهم فى سبيل عقيدتهم كما يقول قطرى :

هى الغاية القصوى الرغيب ثوابها إذانال فى الدنيا الغنى كل تاجر[٤]

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٦٥ .

(٢) أنساب الأشراف جـ ٧ ص ٦١ .

(٣) الأخبار الطوال ص ٢٨٦ .

(٤) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٣ .

وقد رأى الخوارج كل ما هو دون طاب الشهادة تقصيراً وجبناً لا يليقان بالخارجى الحق وقد جعلهم ذلك لا يبكون شهداءهم ، ولا يرثونهم بالصورة التى نجدها عند شعراء الفرق الأخرى إذ كان قتلهم يحقق فى رأيهم سعادتهم وغاية حياتهم ، وهى غاية طلبوها وسعادة حلموا بها ، ولذلك مضوا يمجدون قتلاهم ويسبغون عليهم صفات مثالية سامية ، مصورين استشهادهم زلفى إلى الله راسمين فيهم مثلا أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من عذابه والترامى على حياض الموت طمعاً فى جنته وثوابه كما رأينا فى رثاء عمرو بن الحصين لشهداء موقعة قديد ، فهو ليس رثاء تقليدياً تطيف به خيالات الحزن وتسكب فى أحنائه الدموع ، وإنما هو رثاء من لون جديد تطيف به خيالات الاطمئنان إلى إرادة الله ، والتسليم بقضائه وتمثل الشهداء فى تقواهم ، واحتذاؤهم فى بسالتهم وتمنى حظهم فى الشهادة والقرب من الله ، وهو لا يزال فى مرثيته الرائعة تلك يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وتعبدهم وانحناء أصلابهم على أجزاء القرآن وقوارع الآيات حتى إذا مر أحدهم بآية فى ذكر الجنة بكى شوقاً إليها وإذا مر بآية قارعة من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، ويمضى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أشرعت الرماح وسلت السيوف ورعدت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الاستشهاد شوقاً إلى الجنة .

ولا ريب فى أن هذه الصورة جديدة فى الرثاء تخالف ما ألفناه عند غيرهم من الشعراء فهم لا يبكون فيمن يرثونهم خلال المروءة التقليدية ، وإنما يبكون فيهم المثل الأعلى للخارجى كما يرونه من التقوى والصلاح والزهد فى الدنيا ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت فى بسالة وشجاعة منقطعة النظير ، لأن ذلك يفتح أمامهم أبواب الفراديس فهو من ثم موت موصول بآمالهم فى حياة الخلد والرضوان ولننظر فى بعض أبياته التى رثى فيها رفاقه من الأباضية الذين ذكرهم بأسمائهم لنر تلك الصورة التى يرسمها لهم ونستلهمها من النموذج المثالى للخارجى الحق . يقول :

كخليلك المختار أذك به ... من مغتد فى الله أومر
خوّاض غمرة كل متلفة ... فى الله تحت العنبر الكدر
ترّاك ذى النخوات مختضباً ... بنجيعه بالطعنة الشزر
وابن الحصين وهل له شبه ... فى العرف أنى كان والنكر
بشهامة لم تحن أضلعه ... لذوى إخوته على غمر
طلق اللسان بكل محكمة ... رآب صدع العظم ذى الوقر
لم ينكفل فى جوفة حزن ... تغلى حرارته وتستشرى
ترقى وآونة يخفضها ... بتنفس الصعداء والزفر
ومخالطى بلجٌ وخالصتى ... سم العدو وجابر الكسر
نكل الخصوم إذا هم شغبوا ... وسداد ثلمة عورة الثغر
والخائض الغمرات يخطرفى ... وسط الأعادى أيما خطر
بمشطب أو غير ذى شطب ... هام العدا بذبابه يفرى
وأخيك أبرهة الهجان أخى الـ ... ـحرب العوان ملقح الجمر
بمرشة فرع تثج دماً ... ثج الغوى سلافة الخمر
والضارب الأخدود ليس لها ... أحد ينهنها عن السمر
وولى حكمهم فجعت به ... عمرو فواكبدى على عمرو
قوّال محكمة وذى فهم ... عف الهوى متثبت الأمر
ومسيّب فاذكر وصيته ... لا تنس أما كنت ذا ذكر
فكلاهما قد كان محتسباً ... لله ذا تقوى وذابر
فى مخبتين ولم أسمهم ... كانوا يدىّ وهم أولو نصرى
وهم مساعر فى الوغى رجح ... وخيار من يمشى على العفر
حتى وفوا لله حيث لقوا ... بعهود لا كذب ولا غدر[1]

فهم فى أمر الله يخوضون الغمرات المتلفة ويتركون الكماة مخضبين فى دمائهم وليس لهم شبه فى شهامتهم ولا فى صفاء قلوبهم ونقاء صدورهم ولا

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١١٢ .

فى طلاقة ألسنتهم بالقرآن الحكيم ولا فى خلو ضمائرهم من الحقد والشحناء ، وهم سهام العدو سداد الثغرات وإخوان الحرب العوان وأصحاب الأفهام والعفاف واليقين ، وهم محتسبون فى سبيل الله ، أتقياء أبرار ، مساعر القتال وخيار من يمشى على الأرض والموفون بعهدهم لله دون كذب أو غدر . وهم فتية صبر على الكفاح مهرة فى النضال لا يجود الدهر بأمثالهم فى بسالتهم ولا فى وفائهم بذمتهم ولا فى عفتهم وتأهلهم لكل صالحة ونهيهم عن المنكر وصمتهم فى مجالسهم ووزنهم لقول خطيبهم وتقديرهم لما يسمعون من القول ، لا يتحدثون هذراً ولا ينطقون فى مجالس أذكارهم إلا رمزاً راجفى القلوب متأوهين كأن جمر الغضا يسرى فى ضلوعهم من خوف الله ؛ كأن بهم جوى مرض أو مسهم طرف من السحر، وهم قوامون بالليل لا يلبسهم فيه غواشى النوم إلا سنات مختلسة ينفضون منها رءوسهم مذعورين ويظلون قائمين إلى الفجر يتأوهون من هول ما يقرأون من قوارع الكتاب مفزعى الصدر تجيش مهجهم بالخوف والظمأ ، وهم تراكون لما تهواه نفوسهم من الرغب لا يسرهم من عيشهم غير طعنة فى ثغرة النحر تنهمر معها دماؤهم تجرى[1] .

ولسنا نعرف شبهاً لهذا اللون من الرثاء وما يتضمنه من طلب الشهادة والتغنى بها والحرص عليها واتخاذها غاية فى سبيل الله إلا لدى شعراء الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام[2] .

وتكاد تكون هذه الغاية محوراً تدور عليه حياة الشراة ، وشعرهم ، بل لا نظننا مغالين إذا قلنا إنها هى التى تكيف حياتهم وتسيّر على عسرها وغلوها سلوكهم ونشاطهم الفنى .

وانطلاقاً من هذه الغاية السامية ، تحولت كثرة شعر الخوارج الذى اتخذ الإنسان الخارجى موضوعاً ، عن الأغراض التقليدية للشعر العربى إلى أغراض جديدة تتحدد على أساس هذه الغاية السامية وبالقياس إليها فحسب سواء بسواء كما رأينا فى الرثاء .

---

(١) راجع الأبيات فى الأغانى جـ ٢٠ ص ١١١ / ١١٢

(٢) انظر كتابنا : « شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام » ص ٢٧٤ وما بعدها.

فالمديح القديم تحول فى شعرهم ثناء بالشجاعة والتقوى على الجماعة الخارجية المثالية التى تحرص على الاستشهاد بدافع من روح التقوى المتطرفة ، وإذا أخذنا نقرأ فى شعرهم فلن نجد ثناء بغير هاتين الصفتين ، وهما تدوران فى شعرهم دوراناً واسعاً من مثل قول الطرماح بن حكيم فى تقواهم :

لله در الشراة إنهم ... إذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجّعون الحنين آونة ... وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفة ... تكاد عنها الصدور تنفلق
قوم شحاح على اعتقادهم ... بالفوز مما يُخاف قد وثقوا[1]

ومن طريف وصفهم بالشجاعة قول الطرماح متمنياً أن يحين أجله مجاهداً فى زمرتهم وأن يموت قعصاً فيصبح غذاء للنسور وتذرو الرياح العاصفة أعظمه كالهشيم .

أذا العرش إن حانت وفاتى فلا تكن ... على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومى سعيداً بعصبة ... يصابون فى فج من الأرض خائف
عصائبُ من شتى يؤلف بينهم ... هدى الله نزّالون عند المواقف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تقى الله نزالون عند التزاحف
فأقتل قعصاً ثم يرمى بأعظمى ... كضغث الخلا بين الرماح العواصف
ويصبح لحمى بين طير مقيله ... دوين السماء فى نسور عواكف[2]

ويتجلى الربط بين هاتين الصفتين فى وضوح فى هذين البيتين اللذين تركهما سبرة بن الجعد فى أبيات أخرى للحجاج يعلمه بعودته إلى صف الخوارج والبيتان يقولان :

إلى عصبة أما النهار فإنهم ... هم الأسد أسد الغيل عند الهبايج
وأما إذا ما الليل جن فإنهم ... قيام بأنواح النساء النواشج[3]

(١) ديوان الطرماح ص ١٥٧ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .
(٢) ديوان الطرماح ص ١٥٥ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .
(٣) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٣ .

وهذان البيتان يكادان يكونان شعاراً على الخوارج فهم فى نهار المعارك أسد قساة القلوب لا يرحمون أعداءهم ، فإذا ما جن الليل فإن هذه القسوة تستحيل رقة وخشوعاً وحياء من الله فإذا هم يشهقون وينشجرن خوفاً من النار وحنيناً إلى الجنة .

وهكذا يرتبط الثناء عليهم بالبسالة والشجاعة بتقواهم ، بل إن شجاعتهم لتعزى إلى تقواهم كما تدل على ذلك أبيات عيسى بن فاتك الخبطى يوم آسك ، فلا يكاد الشراة ينتهون من صلاتهم حتى يثبوا إلى ظهور الجياد العتاق ويتجمعون ويحتشدون ثم يعملون سيوفهم فى الجند المرتزقة الذين استأجرهم بنو أمية ، وهم جند لا يدفعون عن عقيدة ، ولا يذبون عن حرمة مثلهم ، وهذا هو السبب الذى يبرر انتصار الفئة القليلة على الفئة التى تفوقها فى العدد أضعافاً مضاعفة :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا
أ ألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويهزمهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك ... على الفئة الكثيرة ينصرونا[1]

فالخوارج فى شعرهم فرسان أتقياء لا يعرف لهم الشعر صفة أخرى ، ولم يثن عليهم إلا بهما ، وهذا معنى ما نقوله من أن المديح القديم قد تحول إلى ثناء بهاتين الصفتين فحسب ، ويخلو شعر الخوارج من المديح النمطى إلا فيما ندر ، وفى حالات خاصة ولا نكاد نجد لشاعر منهم فيه شيئاً سواء أكان فى الخوارج أم فى غيرهم ، وكان رفضهم للتقية وإعلانهم لمبادئهم والزود عنها جهاراً بحد السيف حفيظاً لهم من مديح الولاة والخلفاء وغيرهم من الناس . فهذا عمران ابن حطان يقف يوما على الفرزدق وهو ينشد مادحاً فيقول له :

أيها المادح العباد ليعطى ... إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج نفع المنزل العواد

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٤ .

لا تقل فى الجواد ما ليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد[١]

فهم لا يرون أحداً خليقاً بالتفضل والرجاء غير الله الغنى فلا يسألون غيره ، ولا يتكلفون مدح إنسان بما ليس فيه انتجاعاً وتمدحاً .

وطبيعى أن يتحول الهجاء عندهم إلى نقض هاتين الصفتين اللتين قام الثناء بهما مقام المديح ، فكانوا يهجون أعداءهم بصفات الكفر والفجور والغدر والضلال والجبن والخور فهذا حبيب بن حدرة من أصحاب الضحاك بن قيس يرى كل من لا يدين بدين الخوارج عاصياً محلا متردياً للجبارين الذين يدعون إلى سبيل الضلال والهلاك فى قوله :

يارب إنهم عصوك وحكموا فى الدين كل ملعّن جبار
يدعو إلى سبل الضلالة والردى والحق أبلج مثل ضوء نهار[٢]

وهم دائماً يرمون أعداءهم بالكفر ، ويستبيحون دماءهم ، وكثيراً ما يلجأ شاعرهم إلى عقد مقارنة بينهم وبين أعدائهم كما فى قول قطرى بن الفجاءة :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم[٣]

وأعداؤهم ملاحدة غادرون بينما هم صالحون مخبتون مطهرون كما فى قول امرأة منهم فقدت ابنها فى وقعة دولاب :

الله أيد عمراناً وطهره وكان عمران يدعو الله فى السحر
يدعوه سراً وإعلاناً ليرزقه شهادة بيدى ملحادة غدر[٤]

وكان لوم الخوارج المنحرفين لا يخرج بهم عن دائرة الإيمان ، وإنما يُرمون بأن الدنيا قد خدعتهم وغرتهم فالتوت بهم عن مبدئهم فانخذلوا وخذلوا رفاقهم ، فعندما خذل سبرة بن الجعد مبدأه ، وصار نديماً للحجاج يتردد عليه فى قصره ،

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٥ .
(٢) الكامل / ص ٥٧٨ .
(٣) الأغانى جـ ٦ ص ٥ .
(٤) الأغانى جـ ٦ ص ٤ .

تلومه قطرى بن الفجاءة على هذا الخذلان ، ولنادمته لعدو عقيدته الذى لا ينى يحارب إخوانه ويغرى بهم قائده المهلب فيطاردهم فى كل مكان وكتب قطرى إلى سبرة بأبيات منها قوله :

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا ... إذا نحن رحنا فى الحديد المظاهر
نجاهد فرسان المهلب كلنا ... صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الخز عند أميره ... أمير بتقوى ربه غير آمر
أباالجعد أين العلم والحلم والنهى ... وميراث آباء كرام العناصر؟
ألم تر أن الموت — لا شك — نازل ... ولا بد من بعث الألى فى المقابر
حفاة عراة والتراب لديهم ... فمن بين ذى ربح وآخر خاسر
فإن الذى قد نلت يفنى وإنما ... حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ولاتكُ مغضباً ... على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتبْ توبة تهدى إليك شهادة ... فإنك ذو ذنب ولست بكافر
وسرْ نحونا تلق الجهاد غنيمة ... تفدك ابتياعاً رابحاً غير خاسر
هى الغاية القصوى الرغيب ثوابها ... إذا نال فى الدنيا الغنى كل تاجر[1]

وقطرى هنا يقارن بين سبيل الخوارج والسبيل التى التوت بسبرة عن مبدئه ، فراح مفتونا بالدنيا يجرجر أذيال متاعها الزائل عند أمير فاجر مباعداً بين نفسه وبين ما عليه إخوانه الشراة الذين يجاهدون الفئة الضالة فى صبر وجلد مؤمنين بأن الموت حتم وبأن البعث حق فشتان ما بين الخلود الذى يدقون بابه بسيوفهم والدنيا الفانية التى ابتاعها سبرة بانحرافه وخذلانه وهو لم يصل بعد إلى حد الكفر فهو عاص فحسب يمكنه إذا ثاب وأناب أن يهتدى إلى طريق الصواب فيرزقه الله الشهادة ، وهى تجارة لن تبور بل هى الغاية القصوى لما يتمناه الشارى الحق من ثواب الله إذا ما ابتغى غيره ما يفنى من متاع الدنيا وزينتها .

ولم يكد سبرة يقرأ هذه الأبيات حتى بكى وركب جواده واتخذ سلاحه فلحق بقطرى وطلبه الحجاج فما قدر عليه . ولم يرعه إلا كتاب قطرى وقد سجل سبرة

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ / ص ١٨٣

فى أسفله أبياتاً تقول :

فمن مبلغ الحجاج أن سميره ... قلى كل دين غير دين الخوارج
رأى الناس إلامن رأى مثل دينه ... ملاعين تراكين قصد المخارج
فأقبلت نحو الله بالله واثقاً ... وما كربتى غير الإله بفارج[1]

وقد تعرض بعض الخوارج ممن كان يرى القعـــود لغضب الأزارقة الذين لايجيزونه ، ولكنه غضب لا يتحول إلى هجاء بمعنى الهجاء وإنما هو غضب يقف عند اللوم والاعتذار ونحس فى هذا اللوم معنى الحرص على الملوم والإبقاء عليه ، فقد كانوا يحسون بتعاطف وتراحم قويين بينهم ويصور ذلك ما رواه المبرد من أن أبا خالد القنانى استحب القعود فلامه قطرى بن الفجاءة بقوله :

أبا خالد يا أنفر فلست بخالد ... وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى ... وأنت مقيم بين لص وجاحد[2]

وقطرى يحمسه هنا ويستحثه على الخروج والهجرة عن ديار الكافرين ، ولكن أبا خالد يعتذر بخشيته على بناته الضعاف اللائى سيتعرضن من بعده لقسوة الحياة فكتب إليه معتذراً بقوله :

لقد زاد الحياة إلى حبًّا ... بناتى أنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدى ... وأن يشربن رنقا بعد صاف[3]

وهكذا يتخذ الهجاء لديهم لوناً جديداً ، فإذا هو بالنسبة لأعدائهم هجاء حاد بالكفر والإلحاد والضلال ومجافاة روح الإسلام ، أما إذا كان فيما بينهم فهو نقد لروح التخاذل والإخلاد إلى الدعة ، وحض على الاستمساك بمبادئهم والذود عنها بالسلاح مع التذكير بفناء الدنيا وزوالها والإشادة بما أعده الله للمخلصين فى نصرة عقيدتهم والاستشهاد دونها من ثواب وأجر . وطبيعى أن يفخر

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٣ .
(٢) الكامل ص ٥٢٩ .
(٣) المرجع نفسه .

الخارجى بتقواه وبشجاعته وأن يتحول الفخر التقليدى فى شعره إلى إشادة بالذات الخارجية المؤمنة الباسلة وبإيثارها وتضحياتها من أجل المبدأ وفخرها بما قدمت فى سبيله من مثل قول قطرى بن الفجاءة يوم دولاب مفتخراً بشجاعته إلى أم حكيم :

فلو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير لئيم[١]

ولا يلبث حتى يفخر على الكفار بجماعة الخوارج المؤمنة التى باعت نفوسها لله فى مقابل جنته ونعيمه ويفخر باستحلالهم لحرمات أعدائهم بقوله :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم[٢]

ففخرهم إذن لا يخرج عن دائرة الإيمان والشجاعة فى مجموعه ، لكننا ، لا نعدم أن نجد منهم من يفخر بقبيلته وينجرف فى الخصومات القبلية المستعرة ، كما يتجلى ذلك فى شعر الطرماح وفخره على تميم بقومه من اليمن ، وهى حالة خاصة به ليس من العدل أن نسحبها على شعر الخوارج جميعه ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين فوصف الخوارج فى كثرتهم بالعصبية بدعوى أن حزب الخوارج ضم منذ نشأته عنصراً عديداً ومؤثراً من الأعراب الذين لم ينسوا عصبياتهم بعد[٣] . وفى الحق ، أن الإحساس الدينى المتطرف الذى تميزت به روح الخوارج لم يسمح لأى إحساس قبلى أو جنسى بالبروز إلى جواره إلا عند الطرماح بالذات وهو لا يصلح أن يكون نموذجاً أو مثالا على الخوارج لأنه لا يمثل تلك الروح الخارجية تمثيلا صادقاً بانزلاقه إلى المشاركة فى المنازعات القبلية والتعصب لقومه على تميم وإسرافه فى هجائها وتكالبه على جمع المال واستخلاصه والاعتداد به مما يتجافى وروح الخوارج التى نعرفها لهم .

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٥ . (٢) نفس المرجع .
(٣) انظر : أدب الخوارج ص ١٠٠ .

ويمكننا بعد استبعاد شعر الطرماح فى العصبية أن نزعم أن العصبيات القبلية والجنسية قد فنيت فى عقيدتهم المذهبية فناء تامًّا ، وليس أدل على ذلك من أن بنى تميم والأزد كانوا يقاتلون ويهجون بنى قرابتهم فى جيوش الحكومة الأموية ، وأن الشاعر الأباضى المولى عمرو بن الحصين نسى فارسيته وجنسيته القومية فى سبيل مذهبه حتى خلا شعره تماما من كل أثر لجنسيته إلا ما كان من الآثار الفنية التى لا تخفى فى شعره من حيث الصياغة والأداء .

ونستطيع أن نزعم بأن الموضوعات الشعرية التقليدية قد تحولت فى شعر الخوارج إلى موضوعات جديدة يقوم مقام المحور الذى تدور عليه تلك الغاية السامية التى استهدفوها فلم يستلهموا غير مبادئهم وإيمانهم وقصروا فنهم الشعرى على أنفسهم فلم يمدحوا غيرهم واقتصر رثاؤهم على إخوانهم وأصدقائهم الذين قتلوا فى سبيل عقيدتهم ، ومضى هجاؤهم لأعدائهم يرمونهم بالكفر والضلال والبعد عن روح الإسلام وتعاليمه وحقيقته بينما كان لرفاقهم نقدا لروح التخاذل عندهم ، وكانت عناصر هذه الموضوعات جميعا لا تخرج عن إثبات الصفتين اللتين اتصف بهما الخوارج عملا من التقوى والشجاعة فى المدح والفخر والرثاء ونقضهما فى هجاء الأعداء وفى الدعوة للاستمساك بهما فى نقد سلوك المنحرفين من رفاق العقيدة والمذهب .

وفضلا عن هذه الموضوعات العريضة نجد فى شعرهم أثارة من غزل طفيف يتوجه به الخارجى إلى حليلته فى سياق الفخر بانتصاره لعقيدته وذوده عنها معلقاً عليه أسباب تعلقه بالحياة كما فى قول قطرى :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر غير حليم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير لئيم[1]

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٥ .

وبينما نجد قطريا يذهب إلى أن حياته قمينة بأن يزهد فيها بدون أم حكيم نجد عمران لا يهنأ بحياة الخفض فى ظل حبه لزوجه ولا يأمن لهذه الحياة ما دام الموت قائماً له بالمرصاد ، يتربص به . وهى فكرة تفزعه حتى تدفع به إلى أن يلوذ بنفسه فحسب وأن يشغل بها عن العناية بزوجه أو مواساتها ، فكل شىء باطل ما دام آخرته الموت ولا يليق بمن يؤمن بحتمية الموت أن يذوق خفض العيش ولا أن يطمح به الأمل فيغتر بعيشه ، حتى لا يفجعه الأجل وما وراءه من خطب جلل ، حيث يفر المرء من أخيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه ، يقول عمران مخاطبا زوجه جمرة :

ياجمر ياجمر لايطمح بك الأمل ... فقد يكذب ظن الآمل الأجل
ياجمر كيف يذوق الخفض معترف ... بالموت ، والموت فيما بعده جلل
كيف أواسيك والأحداث مقبلة ... فيها لكل امرئ عن غيره شغل[1]

وكأنما كانت جمرة تقف والموت متقابلين فى نفس عمران فيثير هذا التقابل نغمة شجية حزينة عندما يرتطم فى نفسه إحساسان عميقان ، أولهما مثالى يتجلى فى رفض الحياة الفانية واحتقارها والرغبة فى الموت من أجل العقيدة اقتداء بمن تقدموه ، ويتجسد هذا الإحساس فى أبى بلال مرداس بن أدية وثانيهما إنسانى واقعى يبدو فى حب زوجه الجميلة التى كان وجودها يزين الحياة فى ناظريه وطبيعى أن يتخلف عن هذا الارتطام أسى وتفجع وحزن ولا يزال الإحساس الأول يضنيه ويتراءى له مهما تخايلت الدنيا أمامه متجسدة فى زوجه الجميلة ، فإذا هو يصيح بها : ألا سبيل إلى حياة الخفض ما دام الناس يموتون كما مات مرداس وغير مرداس ، وأن عليها إذا لم تعترف بهذه الحقيقة أن ترحل إلى أرض أهلها لا يموتون :

إن كنت كارهة للموت فارتحلى ... ثم اطلبى أهل أرض لا يموتونا
فلست واجدة أرضا بها بشر ... إلا يروحون أفواجا ويغدونا
ياجمر قد مات مرداس وإخوته ... وقبل موتهمُ مات النبيونا
يا جمر لو سلمت نفس مطهرة ... من حادث لم يزل يا جمر يعيينا

---

(١) الأضداد ص ٧٥ .

إذا لدامت لمرداس سلامته وما نعاه بذات الغصن ناعونا

ولا يمكن أن يكون هذا الشعر غزلا مما تألف، وكأنما طغت العقيدة على نفوسهم وقلوبهم فلم يعد فيها مكان للمرأة يتغزلون فى مفاتنها ومحاسنها ولكنها تثير فى نفوسهم إحساسا بالتقابل بين الحياة الزائفة الفانية وما أعده الله بعدها من خلود فى الجنان أوفى السعير . وكان هذا يقودهم إلى مزيد من التأمل ويمسح على شعرهم فى المرأة بأسى عميق وصادق .

وهكذا يختلف شعرهم عن شعر غيرهم من حيث نظرتهم إلى المرأة ، وليس شك أن تختلف نظرتهم إلى المرأة عن نظرة الغزلين جميعا أولئك الذين كانوا يرون فى المرأة كائنا جميلا محببا فحسب فقد كان للمرأة فى حياة الخوارج العملية أثر كبير نحسه فى شعر عمران عن جمرة وفى شعر قطرى عن أم حكيم وكانت المرأة تلعب فى تاريخهم دائما دورا عمليًّا خطيرا إذ نزلت ميادين القتال وتحملت عسف الولاة وبطشهم .

٣

استلهم شعر الخوارج جهادهم وإن لم يستلهم المبادئ التى خرجوا للجهاد فى سبيلها ، ولهذا كنا لا نجد لهم شعرا مذهبيًّا بمعنى الكلمة كما رأينا ذلك فى شعر شاعر كالكميت الزيدى .

وقد يبدو غريبا أن يعجز الخوارج — وهم أول من فتح ميدان الفقه والفلسفة الدينية فى تاريخ الفكر الإسلامى — عن نقل مبادئهم وتعاليمهم إلى ميدان الشعر . فلم يتحول الشعر لديهم كما تحول لدى الكميت إلى مجالات العقل والمنطق باستدلالاته وحججه وبراهينه وإنما ظل يدور فى مجاله العاطفى تعبيرا عن الذات وما يعتلج فيها من عاطفة ومشاعر وأحاسيس .

وفى اعتقادنا أن السبب فى ذلك يكمن فى طبيعة الخوارج المتشددة فى إيمانها إلى حد التطرف والغلو بل إلى حد التعصب الشديد . وهى طبيعة لا تميل — بطبيعة الحال —

إلى أن تسلك سبل المنطق ، ولا تتفق اتجاهاتها ووسائله ولا تميل بحكم ميلها العاطفى إلى اصطناع أدواته .

فهى طبيعة عاطفية مغرقة فى الروحانية نظرا لتعلقها بمثل أعلى الإيمان والعقيدة وبينما كان سلوكهم حماسيًّا متأثرا مندفعا ، كان دعاؤهم يستند أيضا إلى الحماسة والتأثير العاطفى الذى لا يحفل بالمنطق أو بالفكر ولا تدعمه غير العواطف الملتهبة الصادقة ، حتى كان كلامهم أسرع إلى قلوب الناس من النار إلى اليراع وحتى ليكاد يقع فى خاطر من يستمع إليهم أن الجنة ما خلقت إلا لهم وحتى يخشى الخلفاء من أن تفسد ألفاظهم رعاياهم .

وهم لم يكونوا يخاطبون العقول والأفهام ولا يعنون بالقصد إليها وإنما اتجهوا بدعاتهم إلى القلوب فعالجوها بوسائل التأثير العاطفى ، وجاء شعرهم لهذا تعبيرا عن شعورهم لا عن عقائدهم إذ ليس فى مقدور من يقرأ أشعارهم أن يستخرج منها عقائدهم وإنما يستطيع فحسب أن يتبين قوة مشاعرهم الدينية وأن يرى خلالها صورتهم المثالية وما تميزوا به من طول تعبد وأن يرى جباههم التى قرحها طول السجود وأن يسمع زفراتهم وشهيقهم وهم يتلون القرآن حتى مطلع الفجر وأن يعاين بريق سيوفهم واشتراع رماحهم حتى عند أولئك الذين آثروا القعود منهم أو الذين شغلوا عن العقيدة بمسائل أخرى كالطرماح .

وتتميز مشاعرهم بحرارة الإيمان الذى لا يعرف الدرس والتمحيص أو التعليل والتحليل ، فهو إيمان قوى فى بساطته جميل فى سذاجته دون حجاج أو استدلال أو اصطناع لأدوات الفكر والمنطق ولهذا كنا نرى عنايتهم فى تأييد مذهبهم تنصب على الأسلوب العاطفى الخطابى والتقريرى .

ونكاد نعتقد أن خلافاتهم الفقهية التى دارت بين فرقهم لم يكن لها من هدف سوى خدمة نشاطهم العملى فى الجهاد وفى توجيه حروبهم وحياتهم . فلم تظهر فى شعرهم إلا نادراً وإن ظهرت كان ظهورها وسيلة لتصوير إيمانهم بها فحسب .

ولهذا فإننا نقول إن شعرهم كان مرآة صادقة لمشاعرهم وعواطفهم لا لمبادئهم ومعتقداتهم .

فعندما يثنى عمران بن حطان على ابن ملجم لقتله على بن أبى طالب ويعده أوفى البرية عند الله ميزانا نراه يبرر صنيعه ويرضى عنه تبريرا عاطفيًّا محضا قوامه أن عليًّا شر الخلق وحسب ، دون أن يفكر فى تبرير ذلك تبريراً عقائديًّا أو عقليًّا وكان يمكنه أن يتحدث فى هذا المجال عن خطأ على فى قبول التحكيم وعن تصورهم لتحيره وشكه وغير ذلك مما يدخل فى إطار تصورهم للمسألة التى كانت سببا فى نشأة فرقتهم ولكنه يكتفى من كل ذلك بهذا التبرير العاطفى الساذج الذى يظهر فى قوله :

يا ضربة من شقى ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأفكر فيه ثم أحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا
لله در المرادى الذى سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا[1]

ومثله فى هذا كل شعراء الخوارج فى دفاعهم عن عقيدتهم لا يزيدون على تقرير ما آمنوا به فحسب حتى إنهم لا يزالون يبدأون ويعيدون فى معانيهم ، ولولا ما يتدفع فيها دائما من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا ونحن نقرأ شعرهم بغير قليل من السأم .

وهذا هو السبب فى أن شخصياتهم الشعرية قلما تتمايز أو تتباين ، وكأنما هى صور متعددة من نمط واحد ، فليس هناك فرق كبير بينهم فى المعانى ولا فى الصياغة حتى ليبدو صورا متشابهة ، ومن ثم أشكلت نسبة كثير منه إلى أصحابه الحقيقيين ووقع الأقدمون فى ذلك ، وخير مثال على هذا تلك القصيدة التى ذكرنا أبياتا منها فى وقعة دولاب ، فقد نسبها المبرد لقطرى بن الفجاءة[2] بينما ذكر صاحب الأغانى أن المدائنى ينسبها إلى صالح بن عبد الله العبشمى ، وأن ابن خداش ينسبها إلى عمرو القنا كما أن وهب بن جرير ينسبها إلى حبيب ابن سهم[3] ، ويذكر أبو الفرج أيضا أن الهيثم بن عدى ينسبها إلى عمرو القنا

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٥ خزانة الأدب جـ ٢ ص ٤٣٦ .
(٢) الكامل ص ٥٢٩ (٣) الأغانى جـ ٦ ص ٥

بينما ينسبها أبو مخنف إلى عبيدة بن هلال اليشكرى[١] وتذكر القصيدة فى صور مختلفة من حيث ترتيب أبياتها وبعض عباراتها ، وهى حسب رواية المبرد تجرى على هذا النحو :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش مالم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جد لئيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طغت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها ... وأحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الأزد فى حومة الوغى ... تعوم وظلنا فى الجلاد نعوم[٢]
فلم أر يوما كان أكثر مقعصاً ... يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريما على فتى ... أعز نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنا ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم[٣]

والإقواء فى البيت السابع بيّن مما يجعلنا نرجح أن البيت قد أضيف إلى القصيدة بدليل ذكر الأزد فيه ، ويروى المبرد بيتا آخر لا نجده فى رواية أبى الفرج يقول :

فواكبدا من غير جوع ولا ظما ... وواكبدا من وجد أم حكيم

هذا ، بينما لا نجد فى رواية المبرد تلك الأبيات الثلاثة التى تستهل بها القصيدة فى رواية أبى الفرج وهى :

إذا قلت تسلو النفس أو ينتهى المنى ... أبى القلب إلا حب أم حكيم

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٢ .
(٢) (كذا).
(٣) الكامل ص ٥٢٩ .

منعمة صفراء حلو دلالها أبيت بها بعد الهدو أهيم
قطوف الخطا مخطوطة المتن زانها مع الحسن خلق فى الجمال عميم[1]

وواضح أيضا ما فى البيتين الثانى والثالث من الإقواء ، وهما يتفقان مع البيت السابع الذى لاحظنا عليه الإقواء فى رواية المبرد فى حركة الضم ، بينما تتفق الأبيات جميعها فى الروايتين من حيث انتهاء رويها بحركة الكسر.

ونجد بقية الأبيات وقد نالها تغير واضح فى رواية الأغانى عن صورتها فى رواية المبرد ، فالبيت الثالث فى رواية المبرد الذى يقول :

لعمرك إنى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر جد لئيم

يروى فى رواية الأغانى هكذا :

لعمرك إنى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر غير حليم

والبيت الرابع فى رواية المبرد الذى يقول :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير ذميم

يرويه أبو الفرج على هذا النحو :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير لئيم

وكذلك تتغير صورة البيت الخامس فيحذف عجزه فى رواية المبرد ليصير عجزا للبيت السادس بينما يحذف صدر البيت السادس فى رواية المبرد ، وتضيف الرواية صدراً للبيت غير موجود عند المبرد ، ويصير صدر البيت السادس فى رواية المبرد صدرا للبيت السابع فى رواية الأغانى بينما يحور صدر البيت السابع فى رواية المبرد ليصير عجزا للبيت السابع على ما به من إقواء — فى رواية الأغانى هكذا :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وألافها من حمير وسليم
ومال الحجازيون نحو بلادهم وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها وولت شيوخ الأزد فهى تعوم[2]

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٢ .
(٢) الأغانى جـ ٦ ص ٥ .

ونحن أمام هذه الروايات المختلفة نميل إلى الظن بأنه كانت هناك قصيدتان جاء فيهما ذكر أم حكيم متحدتان فى الوزن والقافية ولكنهما مختلفتان فى حركة الروى بين الكسر والضم ، وأن أبياتهما قد تداخلت بسبب وهم الرواة لاتحاد الوزن والقافية ودوران الأبيات حول معركة دولاب وذكر أم حكيم فيهما ، ويؤكد ذلك قول أبى الفرج « ولبعض الشراة قصيدة فى هذا الوزن وعلى هذه القافية ، وفيها ذكر لأم حكيم هذه أيضا »[1] .

وعلى هذه الصورة أشكلت نسبة كثير من شعرهم إلى أصحابه الحقيقيين . وما هذا إلا لعدم تميز شخصياتهم أو تباينها حتى ليبدو شعرهم وكأنه صور متعددة من نمط واحد ، وسبّب ذلك فناؤهم فى عقيدتهم وتطرفهم جميعا فى الإيمان بها ، وخضوعهم لسلطانها وقصرهم اهتمامهم عليها ، فاتحد لذلك معينهم الذى نهلوا منه جميعا ، وتأثروا شعورا مشتركا وأحداثا واحدة مما ساعد على قوة المشابهة الفنية وإن لم تصل إلى حد التماثل التام .

ويجمع شعر الخوارج أنه شعر ملتهب حار تشيع فيه حرارة الإيمان وقوة العقيدة وفداء المذهب والاستخفاف بالحياة وطلب الموت فى سبيل المبدأ . وقد كان شعراؤهم من كبار دعاتهم المناضلين الذين باشروا الجهاد وتمرسوا به فجاء تعبيرهم حماسيًّا كسلوكهم حارًّا مندفعا اندفاعهم فى ميادين القتال ، وقد تأتى لهم أن يحتفظوا بنقاوة طبائعهم فلم تفسدها الحضارة ولا الترف ، فظلوا على فطرتهم السليمة لا تعوزهم الصرامة ولا الصراحة النقية ، وأخذوا أنفسهم أخذا شديدا فى الخضوع لعقيدة متطرفة خالصة لا تعرف المهادنة ولا الدنية ولا تصطنع التقية تدارى بها الجبن أو تتقنع بها رهبة أو رغبة أو ممالأة . ويكفى للتدليل على مدى صدقهم وصراحتهم أن أهل الحديث يعدونهم أصدق أهل الأهواء حديثا ، وقد أوقع صدقهم أصحاب الحديث فى حرج بالغ بين أن يأخذوا عنهم الحديث أو أن يتركوه ، ولكنهم انتهوا إلى الأخذ عنهم معتذرين عن ذلك بأن ليس فى أهل الأهواء أصح حديثا من الخوارج[2] وقد انعكست

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٢ .

(٢) تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ١٢٧ .

صراحتهم وصدقهم على أدبهم فكان له نغم خاص له قوته وأثره فى النفوس بجبروت الحق وجلال الصدق وقسوته وجماله فصدر شعرهم مباشرة عن نفوس صادقة بخلاف غيرهم من الفرق الأخرى إذ كان الغالب فيها ألا يكون لشعراء المذهب دور فى زعامته وإنما يقتصر دورهم على الدعاء لهؤلاء الزعماء مخلصين فى ذلك أو مأجورين ، ومن ثم كان شعرهم صورة لهم لأنه لا يدور حول أشخاص ، وإنما يدور حول عقيدة هم أنفسهم قادة نضالها وزعماؤها ، فجاء شعرهم لذلك قويًّا واضحا صادقا ملتهبا كشأنهم أنفسهم حتى يمكن أن يعد أصدق صورة أدبية لمذهب سياسى لا يشاركه فى ذلك شعر آخر . فهو كما سبق منا القول تعبير حقيقى عما كانوا عليه بالفعل ، فلم يكن الشعر عندهم حرفة تجود ولا صناعة تحذق لذاتها أو لوجه البراعة الفنية والتميز فى مضمار التجويد والسبق ، ولكنه كان وسيلة لخدمة مذهبهم وثمرة له ، ولهذا السبب ولظروف جهادهم الذى لم يوفر لهم استقراراً ولا هدوءا جاء شعرهم غالبا مقطعات أو قصائد قصيرة تنشأ عند الحاجة إليها كأنها خطبة مرتجلة ، وقد وسم هذا شعرهم من وجه آخر بالبساطة والوضوح والعفوية ، كما كان أيضا سببا فى أنهم لم يخلفوا لنا دواوين خاصة لكل شاعر كالكميت مثلا ، وإذا استثنينا الطرماح — وديوانه يجمع بين شعره الخارجى وفنون أخرى — فإننا لا نجد لأحد منهم ما يكون ديوانا خاصًّا به كما رأينا عند الكميت ولكننا إذا جمعنا شعرهم كله فإنه يكون بلا شك ديوانا للإيمان بالعقيدة الخارجية وسلوك الخوارج .

وثمة أمر آخر يجمع شعرهم وهو اقتصارهم على تصوير حياتهم وإيمانهم بعقيدتهم وبطولاتهم وشجاعتهم واستهانتهم بالحروب وتقواهم وزهدهم ، فدار شعرهم فى دائرة إيمانهم وجهادهم ، ولم يتجاوز هذه الدائرة إلى الارتزاق ولم يتناول فنونا أخرى إلا فيما ندر ، وبوحى من عقيدتهم حولوا الفنون التقليدية من المدح والرثاء والهجاء والفخر والنسيب فنًّا عقائديًّا خارجيًّا لا يستوحون فيه غير إيمانهم وبسالتهم وتقواهم ولهذا لم يحتاجوا إلى تقليد السابقين أو مجاراة المعاصرين إذ وفرت لهم حياتهم مادة لفنهم استلهموها فتفرغوا لعقيدتهم ولإيمانهم بها ولم

يشتغلوا بغير ذلك من المدائح أو الأهاجى ولم ينتجعوا بشعرهم كما لم يستخدموه فى ابتزاز الهبات والعطايا فقد كان ذلك كله دبر آذانهم ولم ينجرفوا فى غمار الخصومات القبلية أو العصبيات الجنسية إذ حال فناؤهم فى عقيدتهم دون استشعارهم الولاء لعصبية أوجنس فاقتصر تعصبهم على عقيدتهم وجماعتهم فحسب ولم يستشعروا ولاء إلاهما . وليس أدل على فناء تلك العصبية من تعرض بعضهم لبنى جنسه وقومه وحيه فى القتال وأخذه بما يأخذ به غيره من النكال طالما خالف عن اعتقاد عقيدته .

وما ذاك إلا لأن إيمانهم بعقيدتهم قد استغرق كل نفوسهم واستنفد كل ولائهم فلم يعد يشغل وجدانهم سوى انتماءاتهم المذهبية ، وكأنما صهرتهم العقيدة فى بوتقة واحدة فأذابت كل تميز وقضت على كل تباين يرجع إلى الدم أو الجنس فقد أجرت فى نفوسهم جميعا تيارا واحدا مشتركا سما بها عن التعصب لقبيلة أو لجنس .

وكان لتوفر شعرهم على التعبير عن إيمانهم بعقيدتهم وتصويره لأنفسهم وقصره على ذلك أثر كبير فى صبغ أدبهم بصبغ شخصى قوى فلم يجعلوا الإحساس بالغير مركز شعورهم ، ويبدو هذا واضحاً فى عدم تميز سمات أعدائهم وخصومهم من أمويين وشيعة وزبيريين فجميع من عداهم — على إطلاقهم — كفار ظالمون دون تفريق وكأنهم لا يحسون فى شعرهم إلا بأنفسهم ولا يدور شعرهم إلا من حولها . ولهذا لم يستمدوا المعانى والموضوعات التقليدية فكان شعرهم جديداً فى معانيه لأنه أثر لمذهب جديد وجد بوجود الإسلام وأسس على آراء وأفكار إسلامية جديدة مستمدة من روح الدين وكتابه وسنة نبيه ، والاقتداء بأصحاب رسول الله فى محاولة للعودة إلى نقاء الدين وصلاح الحكم ومحاربة الفساد ودفع الظلم عن الناس وأيضا كان شعرهم تعبيراً عن أخلاق تحلوا بها وعواطف مهذبة ورقيقة وقوية اتصفوا بها .

وأيضا جاءت أساليبهم جديدة مطبوعة بطوابعهم فكان أسلوبهم ممثلا لصلابتهم واندفاعهم فى جزالته وقوته ، معبراً عن حماستهم وصراحتهم وجرأتهم

فى صدقه والتهابه وحرارته ، مبينا عن تقواهم وتعبدهم وتدارسهم القرآن وحفظه باعتمادهم على آيه فى صياغة شعرهم اعتماداً يبلغ حد التضمين وترجمة معانيه شعراً كما فى قول عمران بن حطان إذ يرفض التفاضل بالأحساب والأنساب والاعتداد بالقربى معبرا عن روح الخوارج فى نظام الحكم وشكل الدولة الإسلامية التى يحلمون بتحقيقها :

فنحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر[١]

وفى هذا تضمين لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[٢] ومن أمثلة ذلك أيضا تلك الفكرة التى تدور عليها أبيات عيسى بن فاتك الحبطى يوم آسك عن انتصار الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الظالمة وذلك فى قوله :

هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا[٣]

ففى ذلك إشارة إلى قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين »[٤] وإلى قوله تعالى : « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون »[٥].

وليس هذا بغريب عليهم ، فقد كانوا ينكبّون على القرآن الكريم انكبابًا لا يتركون قراءته ولا مدارسته فى سلم أو حرب حتى إن عبيدة بن هلال اليشكرى كان إذا تهادن الفريقان فى حرب المهاب لهم ينادى جماعة المهاب فيخرج إليه فتيان من العسكر فيقول لهم أيما أحب إليكم : أقرأ عليكم القرآن أم أنشدكم الشعر ؟ فيقولون : أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ولكن تنشدنا ، فيقول لهم : يافسقة قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن ثم لا يزال ينشدهم حتى يملوا[٦].

وكما لم يستلهموا المعانى القديمة فإنهم لم يستوحوا التقاليد الفنية المألوفة فى شكل

---

(١) الكامل ص ٥٨٩ .
(٢) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٤ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٤٩ .
(٥) سورة الأنفال آية ٦٥ .
(٦) الأغانى جـ ٦ ص ٦ .

القصيدة وهيكلها ولم يحاكوا الجاهليين فى نظامها وتعدد موضوعاتها وأغراضها ، فقد ألزمهم إخلاصهم لعقيدتهم وتوفرهم عليها وحدها أن خلص شعرهم للتعبير عن إيمانهم بها فحسب دون أن تكون لهم غايات أخرى مما وفر لقصيدتهم وحدة فنية ميزتها عن القصيدة التقليدية المعاصرة ، فقد تستهل بعض قصائدهم بالديباجة الغزلية أو الطللية ولكنها تستحيل إلى صورة تتلاءم وغايتهم فإذا النسيب حديث إلى الخليلة وإذا هو ينتهى إلى الفخر إليها بالجهاد أو إنبائها بالحرص على الاستشهاد أو تحذيرها من الاغترار بالدنيا وتنفيرها منها لفنائها وزيفها ، وقد ساعد على تحقيق الوحدة الفنية للقصيدة الخارجية ما أصاب هيكل القصيدة التقليدى نتيجة لظروف القتال والجهاد فإذا هى مقطوعة سريعة ذات موضوع واحد ، ومعان من واد واحد .

وعلى الجملة ، فإن شعر الخوارج يتسم بسمات واضحة تميزه عن غيره من الشعر ، وأهم هذه السمات أنه مرآة صافية لحياتهم وإيمانهم بعقيدتهم وتقواهم وشجاعتهم وأن روحا حماسية تسوده فى صور متشابهة أشكلت نسبة كثير منه إلى أصحابه الحقيقيين ، ويرجع ذلك إلى توحد نشاطهم ولصدورهم عن منبع واحد فى ثقافتهم ، وأن هذا الشعر وإن صور إيمانهم بعقيدتهم فإنه لم يصور العقيدة ذاتها ، ولم ينبر للدفاع عنها بحجج أو أدلة لأنه دار فى مجال العواطف المستندة إلى المثالية الدينية ، وجاء تعبيرهم عن إيمانهم صادقا لذلك وملتهبا ، لأن هؤلاء الذين فاض عنهم هذا الشعر كانوا من كبار القادة والزعماء الذين عانوا النضال وأحسوه فجاء شعرهم تعبيرا حقيقيًّا ولم يكن صنعة يجودونها لوجه البراعة بقدر ما كان تنفيساً عن مشاعرهم ، ولأنهم لم يكونوا يصطنعون التقية أو المداراة جاء شعرهم أيضًا واضحًا وقويًّا .

وقد أداهم إخلاصهم لعقيدتهم إلى الاقتصار على تصوير إيمانهم بها ولم يتجاوزوا ذلك إلى الارتزاق بالشعر أو إلى الانغماس فى الخصومات القبلية أو التعصب الجنسى . فى حين تحولت الفنون التقليدية من هجاء ورثاء وفخر ومدح إلى فن عقائدى خارجى لم يستلهموا فيه غير عقيدتهم وحياتهم فصبغ ذلك

شعرهم بلون شخصى قوى ، ولم يحوجهم ذلك إلى محاكاة الأقدمين ، أو مجاراة المعاصرين ؛ فكان شعرهم جديداً فى معانيه وموضوعاته وغاياته وأسلوبه الذى اتسم بسماتهم من القوة والوضوح والصلابة والصدق والرقة فى غير ضعف ، كما تأثرت صياغته بالقرآن الكريم الذى عكفوا على حفظه وتدارسه وتفهمه حتى بلغ ذلك بهم أن يضمنوا شعرهم معانيه كما سادت أشعارهم تأثرات إسلامية كثيرة استمدوها من روح الإسلام ، وأخلاقياته .

ولم يحفل شعرهم بتأثر التقاليد الفنية الموروثة أو بالمحافظة على هيكل القصيدة التقليدى وقد ساعد على ذلك ظروف القتال والتمرس بالحروب الأمر الذى لم يفسح لهم مجالا للإكثار ولا للإطالة فصارت القصيدة عندهم فى أغلب الأحيان مقطوعة قصيرة ذات هدف وحيد مما أكسبها وحدة موضوعية وفنية لاحتوائها على موضوع واحد أو اشتمالها على معان جزئية من واد واحد ، ونتج عن ذلك أن اختفت المقدمة الغزلية أو الطللية بصورتها التقليدية من قصائدهم الطويلة على ندرتها ، وأصبح الغزل الذى يساق فى مفتتحها حديثا إلى الخليلة عن العقيدة أو عن الجهاد فى سبيلها أو طلب الموت خلاصا من فساد الحياة وزيفها .

وقد برز فى شعرهم ذكر لنباهة المرأة ونزوعها منازع الرجال الكفاة فى الحرب من مثل أم حكيم وغزالة وجمرة ومريم الجعيداء وقطام وغيرهن . وهى ظاهرة لا نلحظها فى شعر غير شعر الخوارج وهى فى حقيقة الأمر صدى لما كانت عليه المرأة الخارجية من قيام على تفدية العقيدة والتضحية من أجلها واحتمال النكال والوبال وتمزيق الأوصال فى صبر وإيمان فى سبيلها .

وهكذا فإن شعر الخوارج فى اعتقادنا يعد أصدق تعبير أدبى عن الإيمان بمذهب سياسى قائم على أسس دينية لا يشاركه فى هذا الوصف شعر آخر ، ولا نغلو إذا ما قلنا إنه صورة رائعة للشعر الإسلامى القوى الجديد فى عصر بنى أمية وفى غيره من العصور إن صح أن نتعرض لغير هذا العصر .